روايات العشاق

بكر محمد إبراهيم

روائع القصص

(٣٨ قصة من واقع الحياة)

الشيخ / بكر محمد إبراهيم

المقدمة

الحمد لله مقلب القلوب الذى يغير ولا يتغير هو الذى أضحك وأبكى وأمات وأحيى . قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء .

وأصلى وأسلم على خير الخلق سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وصحبه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وحبيبه .

وبعــــد ،،،

فهذا الكتاب يحوى قصصا فى الحب والعشق مليئة بالعظات والعبر والغرائب والعجائب والأسرار .

فالحب عاطفة مشبوبة قوية مسيطرة لها أهميتها العظمى فى هذه الحياة والحب هو الذى يربط بين الرجل والمرأة والوالد والولد والأقارب بعضهم ببعض ويظلل علاقات كثيرة منها علاقات الجوار والزمالة والصداقة وبدون الحب تكون الحياة جافة وكئيبة ومملة لا تطاق .

ولكن يجب أن يحاط الحب بسياج من الأدب والفضيلة والأخلاق وأعظم الحب حب الله تعالى لمخلوقاته لاسيما المخلوقات الصالحة. ثم حب الخلق لخالقه وسيد المخلوقات هو الإنسان البشر الذى سخر الله تعالى له ما فى السموات والأرض جميعا . فلنترك القارئ يستمتع بهذه القصص الشيقة والروايات الخلابة المثيرة ...

والحمد لله أولا وآخرا .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

فتاة من دمشق(١)

هرعت «سهام» إلى أم خطيبها الضابط فتحى، تستقبلها باشة هاشة، وترحب بها وتلثم يدها، فقد كانت تحبها أشد الحب، فهى والدة ذلك الشاب الذى آمنت به، واحتل جوانحها، وفاض هواه بها، حتى أصبحت قطعة منه، فهى خطيبته اليوم، وزوجته فى المستقبل القريب، حيث يشيدان عشا يمرح فيه الهناء، وتصفق له السعادة. ولقد تمت خطبتهما بعد غرام عنيف عفيف.

فلقد التقيا فى أحد مقاهى (دمر)، وجلسا على مائدتين متجاورتين، هى مع أسرتها، وهو مع لفيف من زملائه الضباط، وكان الربيع يجلل دمشق بروعته الباسمة، فتهب عليها انسامه معطرة بشذى الأزهار، فتترنح لها الأفئدة هياما، وتتفتح العواطف لنداء الحياة..

وراعها أنه يتأكلها بنظراته، التى تشرق فيها ألوان من الهيام الشديد، فقد كانت فتاته فى جمالها الغلاب، الذى لا يقهر! برأها الله تمثالا أنيقا جسد الجمال الشامى، الذى تزدهيه الألوان الخلابة. وتكسرت نظراتها وهى ترنو إليه، باسترخاء وفتور، وشعرت بالدم يتصاعد إلى وجنتيها، وهو يخالسها النظر، وأعجبت بشبابه الأملود، وفتونه العارمة، وسترته العسكرية التى تزيده فتنة ورواء..

وفى الصباح التالى ذهب «فتحى» إلى والدها، وقدم له نفسه، وطلب يد ابنته.. فحاول الأب التملص، قائلا له : «أتخطبها دون أن تعرفها؟»

– لقد رأيتها معك أمس بدمر..

– ان الرؤية العابرة لا تكفى يا بنى.

– قلبى لا يخطئ، فابنتك هى الوحيدة التى ملت إليها!

---

(١) كتابى – حلمى مراد – فبراير ١٩٥٨ .

- أشكرك على صراحتك .. عد إليّ بعد ثلاثة أيام، لأستشير سهام في الأمر.

ومانعت سهام لأول وهلة، فإن الخطيب «المجهول» لم يرق لها، وهى التى علق فؤادها بذلك الضابط الوسيم، الذى يلتمع فتوة.. فهى مستغرقة في التفكير فيه، تراودها صورته اللماحة فى كل لحظة !.. فقد كان ذلك غرامها الأول. هاجمها وهى فى الثامنة عشرة من عمرها الغض، فأبت نفسها أن ترتبط بخطيب مجهول، لا تشتاقه جوارحها الظمیئة الى تلك الملامح الوضيئة التى رأتها منذ أيام .. فى مقهى (دمر)!

كانت تتعذب، وتقضى الليل ساهرة، وكثيرا ما ارتادت مغانى (دمر)، التى تسيل رضابا، عساها تتلمس ذلك الحبيب الذى دخل قلبها، ذات مساء رفاف بالأنداء، ثم طار، لا تدرى إلى أين!؟

واستبد القلق بفتحى، وماج به الجزع، عندما اعتذر والد الحبيبة عن تلبية طلبه، فقد كان حنينه إليها لاهبا، لا يقر له قرار، وصورتها الناعمة، بقامتها التياهة، وبشرتها النقية، وعينيها العسليتين الصافيتين، تناجيانه من بعيد! وعكف على الخمرة، عساه يجد تسرية عما يضطرم فى أحشائه من لهيب، لا قبل له به، ولكن الخمرة، ومباهج ليالى دمشق، وربيعها المراع، لم تستطع أن تقضى على هذه الجذوة، التى تحرق شغاف قلبه!

وطاف حول بيتها مرارا، يترصدها، عساه يستطيع أن يفئ شوقه، بنظرة واقعة، فقد كان حبه عنيقا، لا يعرف الهوادة، ولكن الظروف ابت عليه هذا اللقاء المنشود!.. وبتأثير يأسه، قرع باب دارها، عند الأصيل. واستقبله صالون فخم، يتحدث بالنعمة والثراء، فقد كان أبوها من كبار تجار دمشق!.. وهدرت بالزائر نقمة على الاغنياء، فقد خيل إليه أنها رفضته لفقره، وثرائها!

ومرت لحظات، مثقلة بالبرم، حتى جاء والدها إلى الصالون، فأهل به بلهجة مؤدبة ناعمة، وسأله عن أحواله، ولكن فتحى انفجر صائحا: يا سيدى .. الآن عرفت سبب عدم رضاك عن زواجى بابنتك»!

وتجهم الوالد ودمدم: ماهو السبب ؟

– لأنى فقير.

– لا تقل هذا يابنى .. إنما الأمر كله يعود إلى النصيب.

– الآن جئت أكرر طلبى الأول.

– ياحبذا .. ولكن سهام لم تنه دراستها بعد.

– هل أفهم من هذا أنه لا أمل لى؟

وهتف الوالد بلهجة جافة :«نعم..»

واعتزم فتحى الخروج، وقد تراءت له «الهوة» التى تفصل بينه وبين الحبيبة الفاتنة، فلفته دمسة راعبة، وناح به شجن بليغ، وضربت أجفانه بشدة وقال :« فليوفقها الله ..»

وأشفق الأب عليه وقال : «إن الله سيوفقك إلى أحسن منها.».. ومد له يده مصافحا، كأنه يرد أن ينهى هذه المقابلة الباردة، التى لم تصادف هوى فى نفسه.. وفى هذه اللحظة دخلت سهام، وهرعت إلى أبيها فاتحة ذراعيها، لتضمه وتدلله.. وأخذت عيناها الضابط فتحى، فخفق قلبها، وكادت تختنق أنفاسها، وتورد وجهها، وتقدمت إليه بربث وأناة، ومدت يدها.. فرعد، وابتعد عنها قليلا..

ورشقته بنظرة دافئة من عينيها العميقتين، اللتين تنطلقان بالبراءة، والتمع على وجهها شحوب رائع، زادها حسنا وأناقة، وتمتمت بصوت خفيض :« اترفض أن تصافحنى؟»

– نعم .. أيتها الارستوقراطية المتعجرفة !

وكاد رأسها ينفجر، وهدرت فى أعماقها لوعة خرساء. وعلقت نظراتها فى الفرا غ التائه.. فتنمر الأب وصرخ «ما هذه القحة ؟»

ولم يدر فتحى كيف استطا ع أنى يضبط أعصابه المستوفزة، ويمنع تلك الجمحة التى استولت عليه، فاستوى جالسا على المقعد الوثير، ونفرت دمعة من عينه، وأطرق ساهما واجما، وقال : «سامحنى يا عمى ، فاننى فقدت عقلى .. واعذرينى يا آنسه..»

ونهض يستقبل الباب، مستديرا على عقبيه..

وصاحت سهام : «لا تذهب .. قل لى ما هى القصة ؟»

– لا شىء يا آنسة .. أنى أطلب من الله أن يوفقك..

وتعالى صوت الأب : «أنه يريد أن يخطبك..»

ومادت بسهام نشوة قريرة، فحدقت فيه، وصعدت نظراتها فى أبيها، ثم أطرقت خجلا.. فها هو منية النفس، والحبيب الذى أوقد فى قلبها الحب من النظرة الأولى، وفارس الأحلام الذى سيطير بها إلى عالم يحفل بالمنى المعسولة، والغامض الساحر اللذيذ!

وأومأ فتحى بيده مودعا، عندما صافح سمعه صوت سهام، الفاتن النبرات، يتردد على فؤاده الكليم، سلاما ونوراً « وماذا قلت له يا بابا؟»

– قلت له انك لا تزالين صغيرة.

– ألم تعدنى يا بابا أنك لن تزوجنى الا من الإنسان الذى اختاره؟

– نعم..

– لقد اخترت هذا الشاب زوجا لى!

وصعق فتحى، وخال أنه فى غيبوبة حالمة !.. ان عصر المعجزات قد انتهى، فكيف تمت هذه المعجزة الغريبة ؟

وحدر الأب نظراته، وقد تألقت بها الدهشة وصاح : «عجيب.. ألم ترفضيه منذ أسبوعين ؟»

– أصارحك يا أبتاه.. لم أعرف أنه هو الذى يريدنى خطيبة له!

وهتف الأب : «ليبارككما الله..»

وهرع إليه فتحى يقبل يده، وهو يجهش ببكاء خافت منقطع، وقال : «سيدى .. ان النعمة السابغة التى طوقتنى بها، لن أنساها إلى الأبد!»

وضحك الوالد وهتف : «وما علاقتى بهذا؟ أشكر سهاما!»،

ودنا من الحبيبة الطاهرة، يتأملها بنظرات حارقة.. ولما لمس يدها، تسعرت به نيران، وانحنى يلثمها بشغف وهو يتمتم : «سأكون لك خير زوج فى هذه الدنيا!»

وشهدت دمشق غراما طاهرا، اندى من ماء الغمام، تحدث به الأقارب والأصدقاء، والجميع يتمنون لهذين الشابين حياة تنبض بالرفاهة والهناء..

وكانت سهام تحب أم خطيبها، لما وجدت فيها من الطيبة والوداعة والعذوبة والتفانى فى خدمتها، لا سيما بعد ذهاب فتحى مع فرقته إلى فلسطين، عندما وقع الاعتداء الآثم على أهلها الآمنين ودخلت الجيوش العربية لانقاذها.. فكانت سهام تأتنس بأم خطيبها البطل، الذى كانت رسائله تنقل أنباء بطولته، مع لداته من أبناء الجيش السورى الباسل..

وذات يوم قالت سهام :

«أراك حزينة يا أماه.. هل حدث مكروه لفتحى؟»

وتماسكت الأم، وتجلدت حتى لا تذرف عبراتها، وقالت : « فتحى بخير وقد قتل كثيرين من اليهود الفجرة..»

– أعاده الله إلينا مكللا بالنصر.

– فتحى بطل، فليحرسه الله.

– إن جميع أفراد الجيوش العربية أبطال.. ولولا تدخل الخيانة والاستعمار لسحقوا الصهيونية، تلك الأفعى اللعينة!

وغامت على الأم رؤى مكفهرة، وتساقطت الدموع من عينيها القريحتين، رغم تجلدها، والقناع البارد الذي حاولت أن ترسمه على وجهها الطافح بالغضون.. فتطلعت إليها سهام، مذعورة، ممرورة، وقد انطلقت الوساوس تمرح فى صدرها، وصاحت : «أصدقينى يا أماه الخبر!»

وتمتمت أم فتحى : «لا شىء يا ابنتى..»

وهزتها سهام بعنف وصرخت: « هل أصاب فتحى مكروه؟»

وتكلفت الأم الابتسام وأجابت : « أن البطل الشجا ع، يحرسه الله .»

– إنك تداورين وتراوغين، لا تقتلينى!

– أقسم لك بالله أنه حى يرزق.

– شكرا لك يارب..

– ولكن..

وعربد الذعر بسهام، وتهدج صوتها، وهى تقول بلهجة غلب فيها الأسى : «اخبرينى الحقيقة!»

– هناك رسالة من فتحى، كلفنى باعطائها لك..

– هاتها ..

ومزقت الغلاف بلهفة، وما أن قرأت السطور الأولى، حتى فر لونها، وانطفأ النور فى عينيها، وارتمت على الأرض، فاقدة الوعى!

وترنحت أم فتحى، لهول الصدمة، وانكبت عليها، تبكى بمرارة وحرقة. وما زالت بها، حتى استعادت وعيها، وان ظل وجهها مريضا أصفر، يحاكى الموتى!

وصاحت سهام من قلب ممزق : «أكاد لا أصدق..»

– وماذا فى الأمر يا ابنتى؟

– أقرأت الرسالة؟

– أجل.

ونشجت سهام ، وانطلقت تبكى .. ومن خلال جهشاتها المتتالية، كانت ترسل القول المتقطع : « فتحى .. غير معقول .. لا يريدنى.. يتزوج من غيرى !؟»

وقالت الأم وهى تهم بالانصراف : «استودعك الله يا سهام..»

لكن الفتاة أمسكت بتلابيبها، ودفعتها بعنف وقالت : « امشى أمامى ..»

– إلى أين ؟

– لأرى فتحى..

– وماذا تريدين منه؟

– لأبارك زواجه!

– سهام .. رفقا بنفسك!

– سأقتله هو والخائنة التى فتنته!

– سهام !

- يستحق الموت.. لقد ذهب لانقاذ فلسطين، لا ليتزوج!

وألقت على الرسالة نظرة محمومة.. وقرأتها بصوت مرتفع، بلهجة ساخرة.

عزيزتي سهام ..

«أستودعك الله .. إلى الأبد .. إن حبى لك كان كاذبا ، فليس من المعقول أن يتأتى الحب من النظرة الأولى .. فعندما سافرت إلى الجبهة طفقت استعرض حبى لك، فوجدته زائفا، قد أقمناه على أساس متداع، اندفعنا إليه بغلواء شبابنا، وقد انهار عند أول صدمة.. فقد تعرفت على أسرة فلسطينية، أحببت فتاتها، بعد تفكير عميق، وتزوجت منها، لأننى لم أجد مناصا لى من هذه الزيجة، بعد أن احتلت بحسنها عقلى وعاطفتى.. فسامحينى، وخير لنا أن نفترق فى بداية الطريق .. والله يسعدك ويوفقك...»

ومزقت الرسالة بعصبية هوجاء، وداستها بقدمها، وقد عصفت بها ثورة مدمرة، فأصبحت كالأعصار الهائج، يجتاح أمامه كل شيء .. إن فتحى خائن.. هذا غير معقول، ولكن هذه رسالته.. ناطقة بجريمته البشعة.. اين عهوده ووعوده؟.. أكان يضحك عليها؟ كلا، لن تغفر له.. بل ستنتقم!

ولطمت خدها، ودقت صدرها، ونبشت شعرها، وهجمت على أم الخائن، تهزها بقسوة وهى تصرخ : « يجب أن تموتى.. لأنك حبلت بهذا الغادر!»

ثم انكفأت إلى مقعد، وقد نفر عرق أزرق فى جبهتها، وصاحت بصوت كالرعد :« أغربى عن وجهى، يا عجوز النحس!»

ولاصقتها أم فتحى، وحنت عليها، تربت خدها المخملى، النقى البشرة، وقد بهت لونه، وغاض التألف الذى كان يتيه عليه!

- ارفقى بنفسك يا سهام.

وبكت سهام، بدموع غزار، فهدأت بلابلها بعض الشىء، ثم ترادى لها من خلال الظلمات التى تسبح فيها، فتحى يرنو إليها، بفتونه العارمة وشبابه الفرد، واخلاصه العميق، وحبه المتجدد، فاستنارت بصيرتها، ومسحت دموعها وقالت : «كلا .. لا أصدق، ففتحى لم يفتر حبه لى، وهو سيظل دوما يحبنى[1]، حتى آخر نفس يتردد فيه.. قد تكون هذه مداعبة!».. وتعلقت بهذه الخطارة، واستنامت لها، كما يتعلق الغريق بأى شىء يصادفه، وصاحت : «أنها مداعبة منه ليبلو حبى.. ولكنها ثقيلة ممجوجة.. أليس كذلك يا أماه ؟»

- كلا يا حبيبتى .. ليست دعابة!

- إنما ماذا؟

- لا أدرى ..

- إذن .. قد عرفت ..

وضربت جبهتها بيدها، وهجمت على الأم الوالهة ، ودفعتها بعنف: «إذن أصابه مكروه وأنت لا تخبريننى!»

وسحت دموع الأم وقالت : «صدق حدسك يا سهام، ففتحى يحبك، واخلاصه لك هو الذى دفعه إلى تسطير هذه الرسالة الكاذبة، حتى ينقذك!»

وقاطعتها بعنف : « افصحى!»

- ان فتحى، واحسرتاه، قد أصيب فى الميدان بشظية قنبلة، فى ساقه، مما دفع الأطباء لإجراء عملية جراحية له، وقد بترت ساقه!»

وانطلقت من سهام صرخة مروعة: «لماذا أخفيت عنى هذا الخبر؟»

(١) فى الأصل : يعبدنى وهذه الكلمة لا تجوز فالعبودية لا تكون إلا لله تعالى .

– هو الذى منعنى، وحملنى إليك هذه الرسالة، لأنه لا يريد أن يربط عجلة حياته الكئيبة، بحياتك.. انه يضحى بحبه، فى سبيل سعادة محبوبه!

– وأين هو الآن؟

– فى المستشفى العسكرى..

وهرولت سهام، وهى تدفع الأم أمامها، وامتطت سيارتها، وانطلقت بها كالريح، حتى وصلت إلى المستشفى العسكرى، وذهبت توا إلى غرفة البطل الجريح، فألفته فى غيبوبة، يهذى من فرط الألم .. فدنت من سريره بخشوع وتبتل، كأنها تطوف بمحراب أسنى ، وسمعته يقول : « ليسعدك الله ياسهام.. أنا الحى الميت .. ما قيمة حياتى؟»

وهبت أنفاسها العطرة تلامس وجهه الذي ينضج بالألم وهمهمت بصوت حنون: « فتحى .. فتحى!».

وتطلع إليها بهلفة، وصرخ: «سهام».

– أجل يا حبيبى..

– من أخبرك أننى هنا؟

والتفت إلى أمه، وقد برق غضب كظيم فى عيونه.. وصاح : ألم تنهى إليها رسالتى؟»

– ولدى الغالى..

وقاطعها بعنف: «اخبرينى.. ألم تعطها الرسالة؟»

وبسمت سهام : « نعم .. قرأتها، ومزقتها!»

– والآن، ماذا تريدين؟

– ما هذه اللهجة الجافة، التى تستقبلنى بها؟

– إن كل رابطة بيننا يجب أن تنفصم..

– ان الله زرع الحب فى قلبينا، ونما وترعرع، وسيؤتى ثمرته ناضجة شهية.

– سهام .. يجب ، أن تنسينى.. الحب تضحية، وإنى أضحى بكل شىء فى سبيلك.. ماذا تبغين من عاجز، وأمامك الدنيا تضحك لك.. والشبان كثيرون؟!

– فتحى ، أنت النور، الذى أبصر به، والأمل الذي يشدنى إلى هذه الحياة.. انى الآن قد أحببتك حبا لا أستطيع أن أصفه!.. أن بتر ساقك هو وسام المجد والبطولة، الذى أفخر به!

ودخل الطبيب فى هذه الآونة، فاستقبلته سهام بابتسامة مشرقة وهتفت :« متى يستطيع فتحى الخروج من المستشفى؟»

– بعد أشهر قليلة.

– سيدى .. سأظل فى المستشفى أعمل ممرضة لخطيبى..

– موافق..

– وأدعوك إلى عرسى، فى اليوم الأول الذى يخرج فيه فتحى من المستشفى!

– حاضر.. انك أكرم زوجة لبطل، هو رمز فخرنا وكرامتنا وعزتنا.

وقال فتحى : « ما أنبلك يا سهام..»

– بل أنت النبل، والبطولة والمجد!

الآن .. نودع «كازانوفا»!

.. ان الجزء الأخير من مذكرات أمير العشسق والمغامرة، منقطع الأواصر، مفكك الحلقات، تتخلله كثير من الصفحات الضائعة.. وبهذه الحلقة نكون قد بلغنا نهاية هذه المذكرات التى كتب لها الخلود فى دنيا الأدب، كتحفة من أروع تحف الأدب الكلاسيكى .

وسواء كانت جميع المغامرات التى أوردها«كزانوفا» فى هذه المذكرات، حقائق وقعت فعلا، أو كانت حقائق داخلها شىء من الخيال، أو كان بعضها من نسج الخيال المحض.. سواء كان هذا أو ذاك، فإن المراجع التاريخية أجمعت على أن «كازانوفا» كان عاشقا مغامرا، ابتدع فى العشق فنونا. وكان «بوهيميا» نادر الطراز.. وكان مبارزا لايبارى ، وأديبا لسنا بحاجة إلى إثبات تفوقه الأدبى، وبين أيدينا مذكراته تشهد على ذلك!

فتعال نودع «كازانوفا» فى مغامراته الأخيرة!

كازانوفا .. فى روما !

- انتهى بى المطاف - بعد أن زرت فرنسا وانجلترا وأسبانيا - إلى الإقامة فى مسكن مفروش، بواجه قصر السفير الأسبانى فى روما. وأصبحت أقضى الشطر الأغلب من صباحى فى صحبة الكاردينال دى برنيس، والأمير دى سانتا كروشى، وسفير البندقية ..

ولقد كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتى، إذ كنت أقضى أمسياتى فى صحبة دوقة فيانو، والأصيل فى رفقة الأميرة دى سانتا كروشى . أما ما يبقى بعد ذلك من أوقاتى، فكنت أفرغ فيه إلى «مارجريت» -ابنة ربة مسكنى ومديرته- وشاب كان يقيم فى البيت ذاته، ويدعى «منيكتشيو»، شعرت نحوه بميل شديد..

وكان لا يفتأ يحدثنى عن فتاة تدله فى هواها، وراح يسهب فى وصفه إياها، حتى أثار شوقى إلى رؤيتها.. ولكنها كانت حبيسة مؤسسة داخلية - تابعة لأحد الأديرة - أودعت فيها منذ كانت فى العاشرة من عمرها.

ولم يكن لها أن تبارحها إلا لتتزوج، وإذ ذاك كانت المؤسسة تمنحها مائتى «كروان» رومانى بمثابة «دوطة» لها. وكان «منيكوتشيو» قد رأى هذه الفتاة أثناء تردده على المدرسة لزيارة شقيقه له من نزيلاتها. وكانت المؤسسة فى أيدى نساء لم يكن راهبات بالمعنى الصحيح، ولكنهن كن متشبثات بالبقاء فى هذا السجن، إذ لا مورد لهن للعيش فى الخارج!

وبفضل الكاردينال، استطعت أن أرافق الشاب فى زيارة المدرسة. وجلسنا فى غرفة معتمة إلى جانب الباب الخارجى، وما لبث أن أقبل على الغرفة شبحا فتاتين فى رفقة المشرفة. وكان من العسير أن أتبين شيئا من ملامحهما فى العتمة، وأن عرفت أن شقيقة منيكوتشيو كانت صاحبة الصوت العذب.

يعمل على اصلاح

«سجن العذارى»!

- ولم تكن المشرفة تتجاوز الثلاثين من عمرها، فرحت أجاذبها أطراف الحديث. وعلمت منها أن التلميذة إذا تجاوزت الخامسة والعشرين، عينت مشرفة على التليمذات الصغيرات .. فإذا بلغت الخامسة والثلاثين، جاز لها أن تبرح المدرسة، وإن كان معظمهن يؤثرن البقاء فيها!

وقلت لها: «إذن فلابد أن بينكن عددا كبيرا من المكتهلات؟»

- إن عددنا يربو على المائة، ولا يهبط به سوى الموت أو الزواج .. على

أننى لم أشهد - خلال العشرين عاما التى قضيتها هنا - سوى أربع تزوجن، ولم يتح لهن أن يرين أزواجهن إلا أمام المذبح.. فإن الكاردينال لا يقبل طلبا من أحد يريد الزواج من فتيات المؤسسة، إلا إذا استوثق من أنه يستطيع أن يعولها!..

وهو لا يسمح للخاطب بأن يشهد الفتيات ويختار من تحلو له منهن، بل أن كل ما يباح له هو أن يذكر السن والأوصاف التى يريدها فى الزوجة المنشودة، فيعهد الكاردينال إلى مديرة المؤسسة باختيار فتاة تتوفر فيها تلك الأوصاف.

ولم أدر كيف كانت الإنسانية تسمح بقيام مؤسسة كهذه.. ولقد تحدثت إلى الكاردينال بهذا الصدد، بحضور الأميرة دى سانتاكروشى، واتفقنا على أن نرفع إلى «البابا» التماسا، ليباح لنزيلات المؤسسة أن يستقبلن الزائرين تحت اللوائح والقيود التى تطبق فى الأديرة!..

وفعل الالتماس - الذى جمعت الأميرة له توقيعات من علية القوم - فعله فى نفس البابا «جانجانيللى»، الذى لم يكتف بما طلبنا، بل أمر بالعمل على أن لا يزيد عدد الباقيات فى المؤسسة - فى أية فترة - على خمسين فتاة، وبمضاعفة قيمة «الدوطة» .. وبأن تفصل الفتاة التى تتجاوز الخامسة والعشرين دون أن تتزوج، على أن تتسلم دوطتها كمنحة تستعين بها على العيش !

يعشق فتاة صغيرة

رغم شيخوخته

- وفى أول يوم أبيحت فيه الزيارات - بعد هذه التعديلات - رافقت منيكوتشيو.. وشاهدته فتاته، فإذا بها مفرطة الجمال.. على أن أخته كانت فاتنة حقا، وكانت فى حوالى السادسة عشرة .. أبدا لم أر فى حياتى مثل بشرتها بياضا، ومثل شعرها وعينيها سوادا. علي أنها كانت مفرطة الشحوب، مما كان ينم عن أن فى أعماقها نيرانا تستعر!.. والحق أننى شعرت بقلبى يتعلق بأرميلينا- كما كانت تدعى - ولكنى استنكرت من نفسي أن أعشق صبية فى سنها، فزعمت لأخيها أننى متزوج، لأقى نفسى نزوات فؤادى، ولأصد أرميلينا عن أن ترعى آمالا لا تلبث أن تمنى بخيبتها!

ومع ذلك فإننى لم أقو على أن أكبح نفسى عن زيارة «ارميلينا» فى الساعة التاسعة من كل صباح، واعتدت أن أتناول قهوة الصباح معها ومع ايميليا -حبيبة منيكوتشيو- ثم أبارحهما فى الساعة الحادية عشرة. وفى إحدى المرات - وكان ذلك فى سنة ١٧٧١- رحت أتوسل إلى «ارميلينا» أن تقبلنى، فتضرج وجهها، وغضت بصرها. ولكنها لم تجب سؤالى رغم الحاحى. وأشفقت الأميرة على من هذا الهوى الفاشل، بيد أنها لم تكن تملك لى عونا!.

وأخيرا يئست، فقررت أن أبتعد عن المغامرة. وقضيت ثمانية أيام لم أر فيها الفاتنة المسرفة فى تمسكها بالفضيلة. على أننى تلقيت رسالة من مديرة المؤسسة، جعلتنى أبادر بزيارتها. وكانت المديرة صريحة، فما أن علمت أننى كففت عن زيارة المؤسسة ليأسى من «أرميلينا» وهواى، حتي نبهتنى إلى أن هذا الانقطاع المباغت من شأنه أن يثير الأقاويل حول الفتاة المسكينة. وأن يوحى بأننى أشبعت نزواتى نحوها، ثم نبذتها!

ووافقت على أن أعاود زياراتى، وفى الصباح التالى، ذهبت كعادتى السابقة، فهبطت لى «أميليا»، وراحت توسعنى لوما على قسوتى. فقلت : «إنما أردت أن لا أحملها على أن تشعر بأننى أغويها.. أفتظنين أن مسلكى كان سهلا بالنسبة لى؟»

وأقبلت أرميلينا، فخيل إلى أن شكلها قد تغير.. وقلت لها إذ عاتبتنى :؟ «إنما أرجوك أن تساعدينى على أن أبرى نفسى بالوسيلة التى أراها ناجدة!.. اننى أرجو - إذ أقلل من رؤيتك - أن أغالب فؤادى!»

- يبدو أن من العسير عليك أن تحبنى كما أحبك.. فأنا أحسن السيطرة على نفسى حين أشعر أن هواى يوشك أن ينأى بى عن مبادئ.

- هذه سياسة لا أمل لدى فى أن أحذفها، فى سنى هذه!.

- لكم أتمنى أن تصبح «بابا»، أو تغدو والدا لى، أو أن تتحول إلى فتاة، لنبقى طيلة ساعات أيامنا معا!

أخيرا .. يحظى بقبلات حبيبته !

- تزوجت «ايميليا» حبيبها فى عيد الفصح .. وفى تلك الأثناء، كنت قد صحبت الفناتين مرات إلى سهرات، حاولت خلالها أن أبث فى نفسيهما المرح الذى أخمده تزمت تقاليد المؤسسة !

وفى ذات يوم أعربت «ارميلينا» والمشرفة عليها -وكانت تدعى سكولاستيكا- عن رغبتهما فى أن تشاهدا حفلة راقصة .. وكانت المهمة صعبة، فعرضت عليهما أن تتنكرا فى زى الرجال. وأعددت العدة، فاستأجرت حجرة في أحد الفنادق، وحصلت لهما على طاقمين من ثياب الرجال. ولما صحبتهما إلي الحجرة التى كانت النار تتراقص فى مدفأتهما - قلت لهما أن بوسعى أن أترك

لهما الغرفة، إذا أثرتا أن تكونا على انفراد. فقالت سكولاستيكا: « اننى لأشعر بأننى أثقل عليكما، فمن السهل أن أرى أنكما متحابان!».

قلت : «هو ذلك .. اننى أحب أرميلينا، ولكنها لا تحبنى، وإنما تعمل علي تعذيبى».

وغادرت الحجرة، ولكن أرميلينا استدعتنى بعد ربع ساعة، معلنة عجزهما عن ارتداء ثياب الرجال دون معونتى .. وفيما كنت أساعدها، ألقت ذراعيها حول عنقى، وراحت تمطرنى بالقبلات .. بينما كانت سكولاستيكا تضحك!

كازانوفا ينشد

حياة هادئة فى فلورنسا

- .. ولم أسهب فى الإيضاح، وإنما اقتصرت على أن أسأل «الأرشيدوق» الشاب، أن يمنحنى مأوى فى دولته، ولكى أقطع عليه السبيل للإغراق فى الأسئلة، ذكرت له الأسباب التى حملتنى على أن ألجأ إلى دولته دون سواها واستطردت قائلا : «أما عن مورد رزقى، فالتمس من سموكم الملكى أن تطمئنوا إلى أننى لست بحاجة إلى معونة ما، فإن لدى كفايتى من المال، وسأكرس وقتى كله للدراسة !.. ولقد كنت أعرف كل علية القوم هنا، منذ عشر سنوات. على أننى لن أجدد تعارفى بهم، لأننى أعتزم أن أعيش فى هدوء وسكينة !».

واطمأنت إلى أن الحاكم الشاب سيقينى كل عدوان، فاستأجرت غرفتين فى منزل رجل طبيب، كانت زوجته قبيحة الشكل، ولم يكن فى ابنته أو ابنة أخيه - التى كانت تقيم فى رعايته - ما يجتذبنى إليهما .. وفى تلك الأثناء، تعرفت إلى صديق جديد، يدعى «زاتوفيتش». وكان شابا مليحا، ذا طباع كريمة، ونفس

سهلة، ومرح فياض.. ولقد تبينت فيه صورة من شبابى، فتوقعت أن يقع فى الأخطاء التى تردبت فيها. وقد التقيت فى داره بالويس زن. وهو ابن «الكابتن» الذى كان قائدا لقلعة «انت اندريه»، عندما سجنت فيها يوما، وأنا فى باكورة شبابى، على ما رويت من قبل.

على أننى لم أوثق صلتى بأى من هذين الشابين، ولم أكن التقي بهما إلا فى الأماكن العامة.. ومع ذلك ، فقد ترتبت الأحداث - التى أوشك أن أرويها - عليهما!

يطرد من فلورنسا .. هى الأخرى !

- فلقد زار (فلورنسا) - فى تلك الأثناء - اللورد لينكولن، الابن الأوحد لدوق نيو كاسل، على ما أعتقد، وكان شابا دون العشرين من العمر، قد تدله فى هوى راقصة من بنات البندقية، تدعى «لامبيرتى»، وراح يحوم حولها. فما أن فطن «زاتوفيتش» إلي ذلك، حتى اتصل بالفتاة، ودبر معها خطة ما، استطاع بفضلها أن يقود اللورد الفتى إلى دارها. وهناك، أحاط «زانوفيتش» و«الويس زن» باللورد الصغير، واستدرجاه إلى لعب الميسر، واستطاعا أن يغشاه بمعونة «لامبيرتى»، فراح اللئام الثلاثة يتقاسمونها معا، حتى بلغ دين اللورد الفتى للويس زن وحده، مبلغ اثنى عشر ألفا من الجنيهات. وقد دفع لينكولن ثلاثة آلاف منها، ووقع بالباقى ثلاث وثائق «كمبيالات» على مصرفه فى لندن.

ولقد كان اللورد هو الذى أنبأنى بكل هذا، عندما التقيت به فى (بولونيا) بعد ذلك بزمن. على أننى فى تلك الفترة لم أعرف من الأمر أكثر مما شاع فى (فلورنسا) عن أن المصرفى «تاسو تاسى» قد دفع ستة آلاف جنيه إلى زانوفيتش، بأمر من اللورد. لذلك ففى وسع القارئ أن يتصور دهشتى عندما فوجئت - بعد انتشار هذا النبأ بثلاثة أيام - بشخص يقتحم غرفتى، ويسألنى

عن اسمى، ثم يأمرنى بأن أبرح أراضى فلورنسا فى ثلاثة أيام، وبأن أتجنب أراضى (توسكانى) بعد أسبوع من هذا الانذار.

وكان ذلك فى ٢٨ ديسمبر.. وأسرعت إلى النائب العام، لأتعرف السبب الذى دعا إلى طردى، فإذا به نفس الرجل الذى أنذرنى بمبارحة (فلورنسا) قبل ذلك بأحد عشر عاما، فأوجست شرا.. وعندما وجهت إليه سؤالى، كان جوابه أن هذه كانت رغبة صاحب السمو الملكى «الأرشيدوق» !

كازانوفا يكتب تاريخ بولندا

- ولقد أبرانى رحيلى من فلورنسا، من مغامرة غرامية كانت خليقة بأن تنتهى إلى نكبة. فقد أحببت أرملة لعوبا، استطاعت بعبثها وغوايتها أن تجردنى من كل عزيمة، وأن تجرنى فى ركابها، وأن تزدرينى وتحاول النيل من كرامتى. ولست أدرى ما الذى كان ينتهى إليه أمرى معها، إذ أننى لم أكن قد ألفت شيخوختى بعد، ولم أكن قد رضت نفسى على أننى تجاوزت السن التى كنت فيها مشتاقا لدى الغوانى والحسان!

وبلغت «بولونيا» فى آخر أيام سنة ١٧٧٢.. وفى أول يوم فى العام الجديد، زرت الكاردينال برانكافورت، المندوب البابوى.. وكنت قد التقيت به فى (باريس) قبل عشرين عاما، وكثيرا ما ضمتنا معا موائد الخاطئات الجميلات..

وفى تلك الأثناء، كان السنيور دى زاجورى - وهو من نبلاء البندقية المبرزين - يعمل مع بعض الأصدقاء المخلصين على استصدار عفو عنى، كى أعود إلى وطنى.. البندقية. وما لبثوا أن سألونى أن أقيم على مقربة من أراضيها. وانتهى الرأى بيننا على أن أقيم فى (تريستا)، حيث سبقتنى توصيات إلى علية قومها.

وقضيت الأيام العشرة الأولى - لاقامتى هناك - فى مراجعة المذكرات التى كنت قد جمعتها فى (بولندا)، ثم شرعت فى كتابة تاريخ القلاقل والاضطرابات التى أدت إلى ما كان يجرى - فى تلك الآونة - من تقسيم الدولة التعسة!

وكنت قد توقعت هذا المصير، منذ اعترف أمير بولندا بالقيصرة اليزابيت بيتروفتا امبراطورة على كل الأراضي الروسية، وحاكم براندنبورج المنتخب ملكا على بروسيا. ولم يقدر لى أن أصدر سوى ثلاثة مجلدات من هذا المؤلف، ثم حال جشع الناشرين دون طبع المجلدات الأربعة الباقية، التى ستوجد بين أوراقى عند مماتى.

ويقوم بتجديد
المعاهدات التجارية لبلاده !

- وفى أول ديسمبر سنة ١٧٧٣، استدعانى البارون «بيتونى» إلى داره، لأقابل شخصا وصل لفوره من البندقية، فهرعت إلى داره، وهناك التقيت برجل مليح، أنيق، يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين، أدركت لفورى أنه السنيور دى زاجورى، الذي تبنى قضيتى دون أن يكون على معرفة سابقة بى.

وعن طريقه تعرفت إلى قنصل البندقية فى (تريسنا)، وكان شيخا جليلا، سعدت بصداقته طيلة العامين اللذين قضيتهما فى تريسنا.. وأعتقد أنه ساهم بنصيب وافر من الجهود، لاعادتى إلى وطنى .. وهى الأمنية التى كنت أعيش من أجلها. فلقد اشتد بى الحنين إلى وطنى فى السنوات الأخيرة.

ومارست فى تريسنا حياة هادئة، لاسيما وأن مواردى كانت من التناقص بحيث اضطرتنى إلى أن التزم الاقتصاد الشديد. ولقد أديت خلال العامين

خدمات لوطنى ، بالتعاون مع القنصل. إذ عملت على مراجعة بعض المعاهدات التجارية القديمة، وعلى تجديدها، مما عاد إلى دولة البندقية بفوائد جمة، تلقيت عنها منحة مالية، ومعاشا شهريا قدره عشرة جنيهات. فساعدنى هذا على أن أتخفف من بعض التقتير فى عيشى.

على أن المعنى الأدبى لهذا التقدير من السلطات التى حرمتنى من قبل من حريتى، واضطرتنى - بعد إذ أبيت البقاء فى السجن ظلما - إلى أن أبقى مبعدا عن وطنى .. كان المعنى الأدبى لهذا التقدير يفوق كل قيمة مادية. وقد حدث - حوالى ذلك الوقت - أن جاء القائد البندقى «بالمانوفا» إلى تريسنا، فى زيارة حاكمها، مستصحبا النائب العام «اريتزو». وقد التقيت بهما فى دار القنصل الفرنسى.

يحترم أحكام ظالميه !

- وكان الزائران يعتزمان أن يقوما - بعد ذلك مباشرة - بزيارة سفينة حربية تابعة للبندقية، مصطحبين القنصل وأسرته، وبعض كبار أبناء البندقية فى تريسنا. فدعتنى ابنة القنصل لمرافقتهم، ولكنى أجبت - ضاحكا- بل من المحكوم على، منذ سنوات طوال - أن أطأ أرضا تابعة للبندقية. فصاح كل الموجودين إذ ذاك، مستنكرين هذا الحرمان، وأصروا على أن أصحبهم. ولكننى قلت : «إذا وعدنى السيدان - أقصد القائد والمدعى العام - بأن لا يصل النبأ إلى ديوان التفتيش فيعتبر خرقا منى لحكم سابق، فلا بأس لدى!».

ووجم الحضور إزاء قولى هذا، واضطروا إلى الذهاب بدونى .. على أن المدعى العام هنأنى - فى اليوم التالى - على حكمتى، وأكد لى أنه سيرفع إلى محكمة التفتيش هذا النبأ عن احترامى لأحكامها!

يانائم الليل(١)

كانت قريتنا أشبه بسجن كبير، إذا أقبلت عليها من بعيد لم تر عينك غير كتلة من الطين الأسود، لا نميز فيها دارا ولا شارعا، وإنما هما أكوام سوداء يدخل الناس إليها إذا ضمهم الليل، ويخرجون منها لينتشروا فى المزارع إذا أقبل النهار وفاض النور.

وكنت أعيش مع أبى فى «دويرة» لا بأس بها على «المصرف» الصغير، وكانت لي أختان متزوجتان تعيشان بعيدا عنا، وكنت أصغر ولد لأبى فكان يحنو على كأنه أم رءوم، ولا أنسى حنانه فى ليالى الشتاء الطويلة، أيام كنا ننام على ظهر القرن ، فكان يأخذنى بين ذراعيه ويغمض عينيه ويظل ساهرا لا يغفو.. وكنت إذا صحوت بالليل أطلب شيئا من الماء أسرع بى، فكنت أسأله :

– ألم تنم بعد ..؟

– .. ومن أين لى النوم ..؟

– يا أبى .. وفيم تفكر ..؟

– فى الأرض يا ابنى .. وهل نفكر – نحن الفلاحين – إلا فى الطين ؟!

وربما استضاف جفناى الأرق مع السحر، فكنت أسمع هذا الشيخ يتقلب ويحادث نفسه .. حتى إذا أذن الشيخ «عبد الله» للفجر، ومضى يمدح الرسول الكريم، وانتهى إلى قوله فى الدعاء للصلاة :

يا نـائـــم الليـــل　　الفجــر نــــور ..
العيـــش وبـــــل　　قــــوم وكـــبر ..
اللـــــه أكبـــر　　اللــــه أكبـــر ..

(١) مجلة المصور ٤ مارس ١٩٤٩ – د. حسين مؤنس.

وكنت إذا خرجت من الكتاب مضيت إلى أبى فى الحقل، فكان يمسك بيدى ويقول :

– شوف يا أبو بكر .. الأرض دى كلها بتاعتنا.. خمس فدادين شرق الجسر وثلاثة غربه ... كلها من كد أيدى ... مش ناقصنى الا فدان عبد الجليل مبارك ...

– يا أبى .. ده راجل غلبان وما حيلتوش إلا الفدان ده ..

– ده فدان دهب يا ابنى مش فدان طين .. ده على الترعة وواقف فى وسط أرضنا زى الشوكة فى الزور .. لو قدرنا ناخده أصبحت أرضنا عزبة .. عزبة تسع فدادين على الترعة .. نروى على كيفنا ونزرع ذهب .. ح أموت بحسرة فدان عبد الجليل ..!

وكان عبد الجليل شيخا فلاحا مسكينا .. ورث عن أبيه سبعة فدادين .. فما زال جيرانه – ومنهم أبى – يحتالون عليه حتى سلبوه ستة منها، وبقى له فدان واحد يعيش منه .. وكان له أولاد كثيرون احتالت عليهم الدنيا بالمصائب حتى لم تبق له إلا بنت واحدة هى رقية .. وكان الرجل يتهادى إلى القبر، ولا يكاد يمسكه فى قيد الحياة الا هذا الفدان وتلك البنت، ومع هذا كان أبى يصر على أن ينتزع منه الفدان !

وحينما بلغت الخامسة عشرة قال لى أبى :

– ألى أين وصلت فى القرآن ؟..

– إلى سورة «الشعراء» ..

– يعنى أى جزء ؟..

– جزء «قد سمع»..

- كفاية بقى .. لن تحفظ أكثر من ذلك، لأنك لم تخلق لتكون شيخا .. سنذهب بعد العصر إلى عمك عب الجليل .. اغتسل وأليس قفطانك ..

وصلينا العصر وذهبنا إلى الشيخ عبد الجليل، وقال له أبى بعد السلامات الكثيرة.

- أبو بكر أهه يا عبد الجليل..

فنظر إلى الرجل لحظة وابتسم ثم قال :

- ما شاء الله .. ربنا يخليه ..؟

- عاوزين له «رقية»..

فوجمت .. فقد فأجانى أبى بهذا. وكنت غلاما لا يفكر فى الزواج.. ومضى أبى يقول .

- أهو كبر أهه وبقى راجل ... وعاوز يناسبك ... عاوز يناسب شريفة بنت شريف.

- على خيرة الله .. أهو ابننا.

- نقرأ الفتاحة ..

وقرأنا الفاتحة وأنا لا أكاد أفهم مما يدور شيئا. ولم احتج إلى التفكير طويلا فى أمر رقية ، فقد كنت أعرفها كما أعرف نفسى : كنت ألعب معها إلى ما قبل سنتين .. حتى حجزها أهلها وألبسوها النقاب .. وكنت أراها تحت طرحتها السواء دون أن أفكر فيها كما يفكر الإنسان فى امرأة .. ولم أستطع الاسترسال مع التفكير، لأن أبى قال :

- قوم يا أبو بكر اقرأ لنا سورة «بس».. كلها بركة ..

وخلعت نعلى .. ومضيت اقرأ «س» بلسانى فقط.. لأن فكرى كان يفكر فى أمر آخر..

وتزوجت «رقية»، وكانت إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمرها ولا تكاد تفهم من أمور الدنيا شيئا، وأتت تعيش معنا فى دارنا، وانقضى عام ونحن لا نكاد نتحدث إلا حديث صبيان رغم الزواج. وكان أبى قد حط عليها عمل البيت كله، فكانت المسكينة تشقى كخادمة، وكنت أحس أنها لا تحب أبى ، فجلست إليها ذات يوم إلى جانب الفرن وهى تخبز، فقالت :

– أبوك ظالم يا أبو بكر.. ماحدش بيحبه..!

– ليه ؟.. حد قال لك حاجة ..؟

– لأ .. لكن خد أرض أبويه ..

– بيزرعها له .. وأبوكى راضى ..

– مين قال ؟.. حتة فدان باقى له من «حيطان» الدنيا.. برضه يطمع فيه أبوك .. تعرف هوه جوزنى لك ليه ؟..

– لأ .. ليه ؟

– عشان الفدان .. روح على الأرض يا أبو بكر .. الأرض مراتك مش رقية .. ما خدناش من ايراد الفدان الا اثنين جنيه، سبع قناطير قطن وتمن أرادب دره !

ولم أتكلم .. وإنما نهضت من توى إلى «الغيط» حيث وجدت أبى يعمل بهمة شاب، ولم يكد يرانى حتى ابتسم وقال :

– تعال شوف أرضنا يا أبو بكر.. أحسن أرض فى الناحية .. كلها خير ومال .. شوف وادعى لأبوك..

– دى مش أرضنا يا أبى ..

– مش أرضنا؟..

– أرض عبد الجليل ..

– أرض عبد الجليل أرض بنته .. بتاعتك .. وانت ابنى

– لأ .. ده ما يرضيش ربنا..

– ما يرضيش ربنا؟.. ليه ؟ مش يحمد الله عبد الجليل.. بنزرع له أرضه وسترنا له بنته.

– وبناكل ماله..

– ايه الكلام ده يا حمار ؟! بتسمع كلام مراتك ؟.. بس لما ارجع.

– ح تعمل ايه ؟..

– ح أقطع لسانها !..

– ما تقدرش .. دي مراتى !

– مراتك ..؟ بقى لك مرأة ؟ من أمتى ..؟ ربيتك وشقيت وراك..

– لكى تستولى على فدان عبد الجليل !..

وكأنما اتهد الرجل، فألقى المدرأة من يده وجلس، وأخرج صندوق دخانه ولف لنفسه سيجارة، وأشعلها، ثم نظر إلى وقال :

– غور دلوقت..

– ليه يابا .. بتعمل كده ليه.. أنا مش ابنك ..؟

– لأ .. مش ابنى .. انت جوز رقية .. روح اترمى فى حضن مراتك ..!

ولمحت الغضب فى وجهه، فأوليته ظهرى ومضيت فنادى :

– أبو بكر .. ما تكلمنيش فى الأرض تانى .. لحسن ما يحصلش طيب.

– لأ .. ح أكلمك .. ده مال راجل غلبان .. وأنا رجل أعرف ربنا.

ولم يرد، وإنما تناول بلغته وقذفنى بها فى وجهى .. فأوليته ظهرى .. ومضيت ودمى يغلى ..

كرهت أبى من هذه اللحظة .. وأقول الحق اننى لم أحبه أبدا حبا خالصا! فقد كنت أسمع ما يقوله أهل القرية كلهم عنه : كان يعبد الأرض عبادة، ولا يكاد يحفل بشىء غيرها: ظل طول حياته ينازع جيرانه ويغصبهم الأرض حتى كون هذه الفدادين الثمانية من دماء الناس ! وكان رجلا فحلا قوي يعمل النهار كله ولا ينام الليل، وإنما يظل ساهرا يفك فى القراريط والأسهم والقناطير والأرادب..

وكان إذا استأجر أرضا وضع يده عليها فلا يكاد صاحبها يصيب منها شيئا، ويمضى يرهبه ويؤذيه حتى ينقطع للمسكين كل رجاء فيها، فيضطر إلى بيعها.. ولم يكن أحد يعلم أين يخفى ماله، لأنه كان يخرج – فى وقت اللزوم – المائة والمئات ! وقد سألته فى ذلك مرة فضربنى، ولم يدفع غير عشرين جنيها مهرا لرقية وكان يصادق العمد ويتقرب إليهم بأساليب لم تكن تعجبنى . وكانوا يحبونه لذلك ويعينونه على ما يطلب.

فلم يجرؤ أحد على الاستعانة بالسلطات، لأن العمدة كان يقف إلى جانبه ويعينه على ظلم الناس، وكنت أتمنى لو استمع إلى مرة وسلك لنفسه طريقا أخرى غير طريق الغصب والقوة، ولكنه لم يكن يسمع .

وعشت معه بعد ذلك أشهرا وكأننا متخاصمان، لا يكاد يكلمنى أو يصطحبنى إلى الحقل .. وشق ذلك على نفسى وثقلت على الحياة فى بيته، لأنه لم يكن يعطينى من المال شيئا ..

وفى ذات ليلة أذن الشيخ عبد الله ولم ينهض أبى للصلاة خلفه، فخفت عليه، ومضيت إليه أوقظه، فوجدته قاعدا.. فقلت :

- ألا تصلى الفجر؟

- لأ..

- ليه يابا ؟ فيه ايه ؟..

- لما أشوف لى حل معاكم.

- ايه بس اللي تاعبك يابا؟ الأرض ما هى عندك واحنا خدامينك ..

- الشيخ عبد الجليل تاعبنى .. وانتم معاه ..

- مش خدت أرضه وبعتها ؟

- اشتكانى للعمدة .. ح أخرب بيته !..

- ما خربت بيته خلاص !..

- اسمع يا أبو بكر .. تطلق رقية ؟..

- اطلق مراتى ؟ ليه ؟ .. ذنبها ايه ؟

- وتردها لما يتأدب عبد الجليل..

- دم حرام يابا.. حرام خراب البيوت.. دى وليه وغلبانة وأبوها مسكين!..

- أنت ابنى والا مش ابنى ؟

- ابنك .. وهيه بنتك..

- لأ .. دى بنت عبد الجليل .. نرجعها له!

- ربنا ما يباركلناش يابا .. حرام علينا !..

ولم أكن أدرى أن رقية سارت خلفى، وأنها كانت تسمع .. فروعتنى حين دخلت وجلست قبالة أبى وقالت :

– مش كفاية خربت بيت أبويا.. عاوز تخرب بيتى ؟! خد الفدان .. مش عاوزينه .. أبويا يكتب لك مخالصة .. وخلينى مع راجلى..

واجهشت تبكى .. وشعرت بقلبى يتمزق .. طفر الدمع من عينى وقلت :

– اسمع يابا .. انت والدى وسيدى وما اقدرش أقف قدامك .. خد الأرض وأنا أخد مراتى .. السلام عليكم..

وأخذت بيد زوجتى ونهضنا .. فلما صرنا بالباب صاح :

– على فين ..؟

– على باب الله .. ح أسيب البلد..

– وتسيب أبوك ..؟

– هو اللى سابنى ..

– اسمع يابو بكر .. الل يجرى ورا النسوان ما ياخدش حاجة .. عندنا بدال البنت ألف..

– عندك أنت ..

– فى ستين داهية .. ح تندم .. اسمعى يا رقية .. خلى أبوك يحمد ربنا ويسكت عنى.

فقالت فى شهامة :

– كل الفدان .. أهو عندك .. عبد الجليل سابه لك .. حسبيك الله..

وحينما خرجت مع رقية كان الشيخ عبد الله يرتل ويقول « يا نايم الليل .. الفجر نور ..»

فقلت لنفسى :

بل قل : «يا ساهر الليل ..» أين هم الذين ينامون الليل فى هذه الدنيا؟ أين هم ..؟

ولم أدر إلى أين أمضى برقية !

– نحن أبناء الفلاحين نعيش فى عالم ضيق ، إذا خرجنا من قرانا أحسسنا إحساس سمكة خرجت إلى الهواء ..؟

ذهبت بزوجتى إلى دار أبيها .. فوجدناه على حاله دائما .. بين الحياة والموت.. قالت له رقية :

– أدى آخرتها .. خربت لك بيتك ..

فابتسم الرجل بكل وجهه، للمرة الأولى فى حياته، وقال :

– طولى بالك واهدى .. هنا أحسن من هناك..

– وأرضك ؟.. أرضك يا أبويا ؟..

– ح ترجع .. الرجل ده مسكين .. هو فاكر الحياة كلها طين فى طين ..! فحرمه ربنا حتى من أولاده ! يا ما ناس بيضحوا بحياتهم فى سبيل قيراط ما يجيبش اردبين قمح فى العام .. ولكنهم سعداء .. لأنهم كديدان الأرض لا تعيش إلا فى الطين .. أنا سعيد جدا فى الوحدة دى .. لقد أخرجنى هذا الجبار التعس من أرضى، وظن أنه أخرجنى من الجنة..! وسيرى بعد قليل من منا فى الجنة ومن فى النار! أهلا وسهلا بك يا أبو بكر.. كنت أتمنى على ربى أن يكون لى ولد.. ولم أحلم أنه ح يكون لى ولد زيك.. تعال أما أبوسك..

وقبل الرجل رأسى ثم قال :

– تعيش معانا إن شاء الله؟

– طبعا .. لحد ما توضع رقية على الأقل..

فتهلل وجه الرجل ، ونهض من فراشه كأنما زايلته الأمراض دفعة واحدة، وقال :

– ح يكون لنا عيل كمان ؟ ألف حمد لك يا رب.. ! خد بأيدى يا ابنى .. واخرج معى إلى صحن الدار.

ومضيت بالرجل إلى صحن الدار فأمر رقية باغلاق الباب، ثم اتجه إلى ركن وقال لى :

– احفر هنا ..ومضيت أحفر حتى بان لى صندوق صغير.. فناولته اياه. ففتحه وناولنى منه صرة فتحتها، فإذا بها نقود..

– جنيهات .. لك ولرقية ! فتهلل وجه زوجتى وصاحت :

– نشترى أرض ..!

فصاح الرجل غاضبا..

– طين ؟.. لا والله ما نعود للطين..! ما جاناش من وراه إلا البلاء..

– أمال نعمل إيه ؟

– اسمع يا أبا بكر.. أنا أعرف انك ما تحفظشى من القرآن إلا القليل .. ولكن أهل البلد ما يشكوش فى أنك شيخ عالم، وأنك تحفظ الكتاب كله .. الشيخ داود قال عنك كده علشان ياخد من أبوك «حلاوة التحفيظ».. وأهل البلد كلهم يحبوك ويعتقدوا فيك الصلاح .. افتح « كتاب» لتعليم الصغار.

فقلت .. فقى ؟..

– أيوه ..! ده أسلم ..! استعين بالقرشين دول لحد مايكثروا عندك الأولاد.

وأصبحت معلم صبيان، وسارت سنين حياتنا رخاء مملا .. وأنجبت رقية غلاما.. سميناه عمر ليكون فارقا بين ماضى أسود ومستقبل مزهر..

أما أبى .. فلم أعد أراه إلا رؤية العابر.. خاصمنى ومضى يشيع عنى أننى أعق الأبناء : تركت أبى فى سبيل امرأة.. ووجد من يوافقه على رأيه من التعساء .. وكان قد بلغنى أنه أصبح سعيدا جدا بفدادينه التسعة. وانه غدا لا يتحدث إلا عن «العزبة»، ورأيته قد غير ملابسه وأصبح من الأعيان: ينام الليل كله ولا يصحو على آذان الشيخ عبد الله، ويجلس طول نهاره على «الجسر» يتأمل أرضه ذات اليمين وذات الشمال .. وبلغنى أنه قرر أن يحج آخر العام ..

وكبر «عمر» ومضى يدرج فى أزقة القرية كغيره من الصبيان .. وكانت أمه لاتخاف عليه شيئا بقدر ما تخاف عليه عادية جده ..

وفى ذات يوم أخذته «زكية» بنت الشيخ داود .. ومضت به إلى الحقول .. فإذا أنا فى صحن الدار مع الصبيان أسمع رقية تبكى وتولول .. وأسرعت إليها، فقالت :

– عمر .. عمر .. أخذه جده ليقتله !

وأسرعت إلى حقل أبى فوجدته هناك والغلام بين يديه، فقلت فى لهجة الغاضب :

– ابنى .. اعطنى ابنى ..!

– لا .. اقتلنى ولا تاخدوش !

– باقولك اعطنى ابنى ..!

فضم الغلام إلى صدره فى حنان لم أعرفه فيه منذ سنوات. ثم أجهش بالبكاء وقال :

– عمر .. تاخد منى ابنى !

– ليس ابنك ..

- بقى لى شهر عايز أضمه على صدرى .. وعايز تأخده منى ؟!

- مالك وللغلام !.. عندك أرضك ..

- خدها .. خد الأرض كلها ودع لى الغلام .. أنا شقى ا أبو بكر .. بيقولوا لك اننى لا أنام الليل .. والله ما نمت ليلة.. من ساعة ما شفت ابنك يدرج.. ارجع إلى يا بنى .. أنت ورقية وعمر .. خدوا كل ما عندى .. وسيبوا لى عمر..

ومضى يلتهم الغلام ويبلل وجهه بدموعه! ونهض والغلام بين يديه .. واقترب من «رقية» وضمها إلى صدره وقال :

- ارجعى بيتك يا وش السعد.. ارجعى وسامحينى..!

وكان الشيخ عبد الجليل قد لحق بنا، ورأى أبى يضم ابنته إلى صدره ويمضى بالغلام، فقال :

- لقد صحا النائم ..

أمن الكافر .. وكفر بالطين!.

جريمة رايخنهال ..!(١)

هذه جريمة أخرى لن تجد أى دليل على نقص فى خطتها، ومع ذلك فهى كما سيرى القارئ من أغرب الجرائم الغامضة التى عرضت لأة سلطة بوليسية فى العالم.

تقع «رايخنهال» بين سالسبورج - المدينة الألمانية ذات الصيت الذائع - و«برختسجادن» التى كانت يوما وكرا لهتلر.. وهى بلدة صغيرة تضم ما بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ نسمة، حباها الله بكثير من الجمال، وبنت فى نفوس أهلها

(١) جريدة المصور ١٣ مايو ١٩٤٩.

الكرم واللطف والدعة والوفاء. وكان لهم من سمو أخلاقهم. ما جعل مهمة البوليس فى بلدتهم، مهمة صورية .. إلى أن وقعت فيها ذاك يوم مأساة غامضة شغلت أفكار الألمانيين ردحا من الزمن، وجعلت ذكر البلدة الهادئة على كل لسان.

ففى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير سنة ١٩١١، وفى «فيللا» أنيقة تقع على بضع مئات الأمتار من أقصى الطرف الجنوبى للبلدة، على الضفة اليمنى لنهر «سالاخ». وجد الكولونيل كونت «أدلبرت فون هاردج» - وهو ضابط قديم من ضباط الفرسان البروسيين - قتيلا بثلاث طعنات من خنجر حاد .. وكان من المؤثر حقا أن يلقى الضابط العجوز هذه الميتة الشنيعة فى اليوم السابق مباشرة لعيد ميلاده السابع والستين.

بين أطواء الماضى

ولقد كان «الكونت ادلبر» ينحدر من أسرة بروسية عريقة. قد لا تكون ذات أمجاد طنانة. ولكنها ذات حسب لا ترقى إليه المطاعن. وكان عسكريا منذ نشأته، رقى سلم الدرجات فى لواء الفرسان البروسى عن جدارة واستحقاق ، فلما تناهت إليه أنباء نشوب الحرب بين فرنسا وألمانيا في سنة ١٨٧٠، خف إلى «مجدبورج» حيث انضم إلى فرقته التى كانت تعسكر فى حامية المدينة. حتى إذا أرسلت الفرقة إلى خطوط القتال، خاض غمار الحرب فى الميادين الفرنسية، وكان يقود رجاله فى شجاعة فذة، لا يهاب لقاء الموت، رغم أنه خلف وراءه فى المانيا زوجة حسناء، وطفلا ولد قبل إعلان الحرب بشهرين، ولقى مصرعه فيما بعد فى حادث انقلاب عربة كان يركبها وهو فى الحادية عشرة من عمره ..

وفيما كان « فون هارديج» فى «جيرا» أثناء انطلاق فرقته فى مطاردة إحدى الفرق الفرنسية، نمى إليه نبأ وفاة زوجته، وكانت الصدمة قاسية عليه،

كادت توردە مواد الجنون، لولا أن أشفق عليه أحد زملائه - وكان يدعى «جواشيم فون كابل» - فأوحى إليه بأن المرأة التى كان يقدسها لم تخلص له يوما، بل كانت قبل زواجه منها خليلة ملازم من ضباط الحرس يدعى «فرانز فون ليب»، وقد ظلت على علاقتها به بعد الزواج، وما كان الطفل الذى أنجبته ونسبته إلى «فون هارديج» إلا ثمرة هذه العلاقة الآثمة !

إنما نذكر كل هذا، رغم قدم العهد بينه وبين يوم الحاث، لأن البعض رأوا إزاء الغموض الحالك الذى أحاط بحادث الانتحار، أن ينقبوا فى ماضى الرجل، عسى أن يهتدوا إلى ضوء يسترشدون به.. ولقد تلقى فون هارديج القصة التى رواها له «كابل» فى جلد، ووضعها نصب عينيه، فكان لا يفتأ يقول له :

- لن أجسر على أن أحرم وطنى من جندى يحارب فى سبيله طالما هذه الحرب دائرة .. ولكنى لن أحجم عن قتل «ليب» بمجرد توقيع الصلح!

وقد كان .. ففى ١٧ مارس سنة ١٨٧١، تبارز مع «ليب» واستطاع أن ينفذ سيفه إلى صدره، فلم تنقض ساعة حتى مات مخلفا زوجة شابة وطفلا فى الشهر السابع عشر من حياته!

وكان لأسرة «ليب» من النفوذ ما يمكنها من الثأر.. ولكن المبارزة كانت قانونية مشروعة، لذلك اتجهت فى ثأرها إلى السعى لحرمان «هارديج» من ترقية عالية كادت تصيبه فى سنة ١٨٧١.. ولا يدرى أحد، أكان هذا الغبن الذى لقيه سر اعتزاله الخدمة فى الجيش قبل الأوان، أو أن مرد هذا الاعتزال، وفاة زوجته الثانية فى سنة ١٨٩٨ وهى تضع حملها ..

إنما المهم أنه اعتزل الناس، وأوى إلى «الفيللا» الأنيقة حيا فيها منفردا، لا يشاركه فيها سوى خادمين يقيمان فى جناح ناء منها. وتمثلت صلته بالعالم بعد ذلك، فى أنه كان يستقل عربته مرة فى الأسبوع إلى «بيينج» -على سبعة

كيلومترات من «رايخنهال» – فيتناول عشاءه مع صديقه الحميم «كابل»، الذى كان يعيش مع زوجته وأبنائه الخمسة.. وكان «هارديج» اشبين أكبر هؤلاء الأبناء، وقد صار ضابطا يرتقيه مستقبل لامع .. وبعد يومين أو ثلاثة، كان كابل يرد الزيارة لصديقه ..

وفيما عدا هاتين الزيارتين، كان « هارديج» منقطع الصلة بالعالم تقريبا.

غموض وحيرة ..

لنعد الآن إلى حادث ١٤ فبراير سنة ١٩١١.. فقد وجد «هارديج» قتيلا فى غرفة مكتبه، بثلاث طعنات من خنجر.. ولم يكن ثمة غير احتمالين : إما أن الحادث انتحار، أو أنه جريمة.

ولكن الانتحار كان فكرة مستبعدة، فما كان ثمة ما يبرر اقدام «هارديج» على مثل هذا العمل اليائس، فضل عن أن طعنتين من الطعنات الثلاث التى قضت عليه، كانتا فى وضعين من المستحل أن تبلغهما يده لو أنه كان الطاعن .. أما الطعنة الثالثة – وهى التى يرجح أنها سببت الوفاة فى الحال – فكانت مما يحتمل أن يستطيع القتيل أحداثها بنفسه .. ولكن الخنجر – وكان من خناجر الصيد الكبيرة، انتزع من مجموعة كان الكونت يزين بها جدارا مقابلا لمكتبه – لم يكن يحمل أثرا لبصمات أصابعه. بل كانت كل البصمات التى على مقبضه، لأصابع غريبة عنه.

إذن ، ففى الأمر جريمة .. لكن، كيف استطاع القاتل أن ينفذ إلى داخل المسكن، وقد وجد «جوهان» – الوصيف الخاص للقتيل – كل أبواب المسكن مغلقة من الداخل أما بالرتاج أو المزلاج، فيما عدا الباب الصغير المؤدى إلى دورة المياه، إذ كان مقفلا بالمفتاح فحسب كالمعتاد، ليستطيع وزميله أن يلجأ إلى المسكن خلاله حين يأتيان فى الصباح لأداء واجباتهما.

بقى مدخل واحد، كان كفيلا بأن يفضى بالقاتل من الشارع إلي غرفة المكتب مباشرة، إذ كان يقع خلف مقعد القتيل، وقد طلى بلون الجدار كى يبدو جزءا منه.. ولكن هذا الباب كان كسواه محكم الرتاج!..

وكان من المحتمل أن تتجه الشبهات نحو الخادمين، إذ كانا يحملان مفتاح الباب المفضى إلى دورة المياه، وهى بدورها تفضي إلى غرفة المكتب. ولكنهما كانا وقت ارتكاب الجريمة – وقد قدره الطبيب الشرعى بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الثانية عشرة مساء – يستضيفان حارس ضيعة مجاورة، ينحدر من موطن رأسيهما.

ومرة أخرى، كان من المعقول أن يكون الحارس شريكا لهما. لولا أن ثبت أن الكولونيل هو الذي استدعى الحارس ليتفق معه بصدد نزهة صيف كان يزمع القيام بها فى الأراضى التى تحت حراسة الرجل.

فضلا عن أن المحققين تبينوا أنه كان من مصلحة الخادمين أن يعيش مخدومهما أطول عمر ممكن، إذ كانا شيخين، ولم كان لهما من مورد سوى الأجر الذى يمنحهما إياه.. وقد حققت الأحداث ذلك فيما بعد، حين اضطر أحدهما – وهو المدعو «جوهان» – إلى دخول أحد الملاجىء الخيرية بعد الحادث بثلاثة أيام .. ولو أن البوليس كشف سرقة أى شىء من مسكن الضابط العجوز. لكان ثمة مجال لأن تحوم الشبهات حول الخادمين، ولكن كل شىء كان فى موضعه لم يمس !..

ضوء خادع !..

وفى غمرة الحيرة، تلقى البوليس خطابا غفلا من التوقيع، يذكر أن جنديا سيء السلوك، من الفرقة التى كان يرأسها «هارديج»، يحمل موجدة وحقدا للكولونيل، إذ كان قاسيا عليه، حتى لقد زج به فى السجن أمدا لعدم انصياعه للنظام .. وقد شوهد هذا الجندى فى الضواحى القريبة من «رايخنهال» فى أوائل فبراير.. وورد فى الخطاب أنه كان قد أقسم لينتقمن من الكولونيل.

والقى هذا الخطاب بعض الضوء فأتى البوليس وهم يتخبطون فى داجر الحيرة.. ومع أن مثل هذا الانتقام كان متأخرا باثنتى عشرة سنة – على الأقل – عن الوقت الملائم له، إلا أن هذا لم يحل دون إنطلاق البوليس فى كل مكان بحثا عن الرجل .. وسرعان ما عثروا عليه، فما أن رآهم حتى أجفل وتولاه الذعر، مما ضاعف من يقينهم بأنه القاتل ..

ولكن يقينهم لم يلبث أن عاد يتضاءل من جديد، حين كشف التحقيق عن أن ذعر الرجل إنما كان مرده أنه ارتكب بعض سرقات، واشتبك فى عدد من المشاجرات، وذاق مرارة السجن زهاء عامين.

لذلك كان يخشى البوليس كما يخشاه كل مشتبه فى أمره من ذوى السوابق.. أما سخيمته وحقده على «فون هارديج»، فقد محت الأيام كل آثارهما.. ولم يحجم عن التأكيد أنه لو عثر على الكولونيل عندما سرح من الخدمة لما أفلته من القصاص، ولكن مرور الزمن أنساه ثأره.

ومرة أخرى، ارتد رجال البوليس إلى ظلمات الغموض .. وعاد الشك إلى الخادمين من جديد، ولكن أحدا لم يجد قرينة حاسمة لادانتهما .. حتى البصمات التى وجدت على الخنجر، كانت باهتة، مشوهة، لم تفد البوليس فى شيء .. ومع ذلك فقد أصر المحققون على اتهامهما وزميلهما الحارس، لولا أن

تقدم عاشقان، كانا فى لقاء مختلس على مقربة من «الفيللا»، فشهدا بأنهما رأيا الثلاثة خلال نافذة الغرفة التى يقيم فيها خادما الكولونيل - يشربون ويتحدثون طيلة الوقت بين الساعة العاشرة مساء ومنتصف الواحدة صباحا .. وكانت الستار المسدلة على النافذة رقيقة، والضوء فى الحجرة ساطعا، فلم يفت العاشقين شىء من حركاتهم ..

وهكذا تراكمت طبقات الظلام والحيرة من جديد ..!

الملف الأسود !..

وفى اللحظة التى تملك اليأس فيها المحققين حتى كادوا يحفظون القضية، ويسجلونها ضد مجهول، تقدم مخبر نمسوى خاص، كان يتتبع القضية لحساب بعض الصحف، بحل للمشكلة، قال فيه :

«.. اننى أثق بما وصل إليه البوليس من استحالة أن يكون الحادث انتحارا، ومن استبعاد أن يكون الخادمان مرتكبيه.. ولكن إذا كان الكولونيل قد قتل فعلا بيد غير أيدى خادميه، وفى حجرة محوطة بالأبواب المحكمة الغلق، فليس لذلك سوى تبرير واحد، وواحد فقط، قد يبدو بسيطا، ولكنه مقنع يبعث على الارتياح.. ذلك هو أن القاتل كان على معرفة بالقتيل، وقد نفذ لى الدار بإذن منه، إذ فتح له بنفسه الباب السرى الذى فى مكتبه .. وبعد مقابلة بينهما - طويلة كانت أو قصيرة - طعن الغريب صاحب الدار .. ولكنه لم يقو على غير طعنتين . لم تكونا قاتلتين - ثم خيل إليه أنه اغتاله ، فلاذ بالفرار .. ولسبب ما، لم يشأ الكولونيل أن تكتشف السلطات مغتاله، فاستجمع قواه - دون أن يغاد المقعد الذى طعن فيه - ودفع مزلاج الباب الخفى المفضى إلى الشارع، ثم تناول الخنجر بطرف ثوبه حتى لا يترك عليه آثارا من بصماته، ولعله أراد أيضا أن يمحو بصمات الغريب، ووجه إلى قلبه طعنة قاضية !»

ولكن ، بقى سؤال واحد، حار رجال البوليس والمحققون فى الإجابة عنه .. أى دافع قوى جعل الكولونيل العجوز يقدم على هذا التصرف الشاذ ليتستر على قاتله ؟.. كان المعروف أن «هارديج» لا يكن لأحد حبا يدفعه إلى مثل هذا العمل، قدر حبه للابن الأكبر لفون كابل، ولم يكن من المعقول إطلاقا، أن يقدم الشاب على اغتيال اشبينه .

وفى غمرة الحيرة، عثر البوليس الألمانى علي ملف صغير ضم سبع رسائل وعددا من البطاقات، لم تكن تحمل أسماء ولا تواريخ، وإنما اقتصرت علي بضع عبارات مقتضبة بتوقيع «ل» ، تضمنت تهديدا للكولونيل بالقتل على أنه جزاء عادل وفاق له .. وقد جاء فى إحداها : « من قتل بالسيف يقتل به!.. لقد علمت الحقيقة متأخرا، ولكن طول الوقت لن يثنينى عن القصاص ..»

وكان الكولونيل قد أسلم هذا الملف - خطابا بعد خطاب - إلى عشيقة شابه له فى «بيدينج»، لكى تحرقها جميعا بعد وفاته .. ولكن المرأة ظلت خمسة أشهر مترددة ، ثم انتهت إلى تقديم الرسائل للبوليس .. وكان هذا الملف هو الحلقة الوحيدة المفقودة .. فلقد كان من الواضح أن كاتب هذه الخطابات لم يكن غير ابن ضابط الحرس «ليب» الذى بارزه «هارديج» وقتله منذ أربعين عاما. ولابد أنه عرف سر مقتل أبيه على مر الزمن، ولما كان شابا، سكيرا، سيء السير والسلوك ، فقد أوحت إليه أخلاقه الضعيفة أن أباه لم يقتل قتلة شريفة مشروعة، ومن ثم عقد العزم على الانتقام .. ولعله استطاع خلال المقابلة التى تمت بينه وبين الكولونيل ليلة الحادث، أن يستثير عواطفه، فيجعله يحرص على أن يتستر عليه، ويخفى جرمه !..

ولم يضيع البوليس دقيقة واحدة في سبيل اعتقال الرجل، فراح يطارده من ليزيج إلى برلين فهمبورج، حيث اختفت كل آثاره نهائيا.. واختفى معه كل د ليل يدعم حل المخبر الصحفى النمسوى أو يهدمه.

وهكذا، بقيت الجريمة بين الشك واليقين .. والغموض والوضوح !..

القتيل الذى لم يقتله أحد !(١)

لم يكن لمسيو «أوكتاف برنار» من هم فى الحياة، سوى الاستئثار بالغوانى الحسان. وأجود أنواع النبيذ المعتق.. وكان فى بداية حياته تاجرا ثم اعتزل التجارة – وسواها من الأعمال – بعد أن جمع ثوة طائلة واستقر فى فيللا أنيقة بضاحية كوديران، ببوردو، بفرنسا، يعيش عيش ذوى السعة والبطالة..

لقد تزوج فى شراح شبابه، ولكن زوجته ماتت بعد قليل، فعزف عن الزواج مرة أخرى، وإن لم يعزف عن النساء، وكانت «كوديران» في ذلك العهد تعج بأجمل الفتيات الحديثات السن. وأروع السيدات اللاتى خلفن مرحلة المغامرات والطيش، فاكتسبن حكمة ووقارا.. على أن مسيو أوكتاف، كان كثير التحفظ فى علاقاته مع الفتيات العفيفات، ولا يكن لهن سوى مودة خالصة.. فإذا أراد إرضاء نزوة، تخير من الرفيقات من تتخذ الهوى سلعة وتجارة..

وكان خادماه – وهما شقيقان مسنان يدعيان «بيير وفيليسى جارنييه» – يدركان نزواته، ويعرفان أمر مغامراته، إذ كانا يقيمان فى طرف من الطابق الأول – والأوحد – الذى تتألف منه «الفيللا» .. ولكنهما لم يكونا يعنيان بغير واجباتها، أو يسعيان لغير الأجر السخى الذي كان «أوكتاف» يمنحهما إياه .. فقد كانت «فيلبسى» فى الثامنة والخمسين، وكان «بيير» فى الخامسة والستين، ومن ثم كانا حريصين على أن يدخرا– مذ التحقا بخدمة الرجل قبل ذلك بثلاثين عاما– ما يكفل لهما حياة طيبة إذا أقعدتهما الشيخوخة عن العمل.. وكان يضاعف من تفانيهما فى خدمة أوكتاف، أن الرجل وعدهما بمنحة قدرها ١٠,٠٠٠ فرنك، حين يتقاعدان .. وهى منحة إذا ضمت إلى ميراث صغير آل إليهما من عامين، وإلى مدخراتهما، كفلت لهما سعة فى الرزق بقية العمر.

(١) مجلة المصور ١٣ مايو ١٩٤٩.

الجريمة تمت بطعنة موسى

وكان «بيير جارنييه» هو الذى اكتشف الجريمة، حين لف إلى مخدع مسيو اوكتاف فى صبيحة ٣مارس سنة ١٨٦٧ ليوقظ سيده، كالمعتاد.. إذ لقى الرجل مصابا بطعنة قاضية من موسى للحلاقة، وقد استلقى فى سريره، وبلغ من جرأة قاتله أنه غطى الجثة من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بغطاء ثقيل لم يكن أوكتاف يستعمله قط. إذ كانت غرفة نومه تدفأ كل مساء بحرارة «منقد»، لاسيما فى الليالى التى ينتظر فيها رفقة ناعمة !..

وكان من الملاحظات الهامة التى استرعت الانتباه، أن مسيو «أوكتاف» لم يعتد القراءة فى فراشه، بل كان يضطجع أحيانا - ولفترات طويلة - فى مقعد وثير، ليستغرق فى مطالعة بعض القصص أو الكتب التى توافيه بها المكتبة التى يعاملها.. وقد وجدت - عند اكتشاف الحادث - قصة طرحت على المقعد، وقد قضى نصف صفحاتها.. وعلى صفحتها الأولى، رؤيت هذه العبارة

«هيلين موراندييه - ٣ ماس سنة ١٨٦٥».. وفيما عدا ذلك، لم يكن يوجد ما ينم عن المكتبة التى باعت الكتاب، ولا عن شخصية «هيلين»، أو العلاقة التى بين ٣ مارس سنة ١٨٦٥ و٣ مارس سنة ١٨٦٧.. فهل كان مجرد مصادفة!؟.. وأكثر من ذلك، أن الأداة الحادة التى تفض بها الصفحات، والتى وجدت داخل الكتاب، لم تكن تمت إلى «أوكتاف» بصلة. كما قرر خادماه.. فهما لم يرياها معه قط من قبل! .. ولم يستطع أحد أن يتعرف على صاحبها.

الغموض يكتنف الحادث

وكان الدم قد نزف من الجرح الذى قضى على القتيل بغزارة حتى لوث البساط الذى كان إلى جوار الفراش.. وعلى منضدة صغيرة عند رأس السرير، وجد مصباح زيتى، وساعة صغيرة، وصحيفة تحمل تاريخ ذلك اليوم .. لم تمس، رغم ما عرف عن «أوكتاف» من إهتمام بالأنباء

وكانت دورة المياه المتصلة بالمخدع، تفضى، كما يفضى المخدع، إلى الشارع خلال باب شبيه بالنافذة ... وكانت مصاريع نوافذ المكانين مغلقة حين وفد «بيير» فى الصباح لايقاظ سيده، وقد ظلت على حالها إلى أن وصل رجال البوليس ... ولم يلاحظ أحد على أى المكانين أقل فوضى، تنم عن عبث يد غريبة ... وإنما وجد جورب مفرد، من الحرير الرقيق، على مقعد فى مواجهة «الدوش» بالحمام، وقد طرز على طرف منه الحرفان «ا. ف».

ولم يجد البوليس عناء فى البحث عن صاحبة الجورب، وقد ظن أنها مرتكبة الجريمة، أو شريكة فيها.. إذ ظهر أنها فتاة تدعى «أوجينى فيبارد»، تحوم حول سمعتها الشبهات .. ولم تتردد الفتاة فى أن تعترف بأنها رافقت «أوكتاف» – ذا الستين عاما – إلى مسكنه.

ولكن ذلك كان قبل الجريمة بثلاثة أيام أو أربعة. وقد قضت الليلة معه. فلما همت بالانصراف فى الصباح التالى، وجدت أن أحد جوربيها ضائع، واضطرت أن تخرج بساق عارية وأخرى مكسوة.. وقد دل التحرى على صحة هذه الأقوال جميعا!.. والظاهر أن صاحب الدار وجد الجورب، فوضعه على المقعد الذى فى الحمام، ريثما تعود صاحبته للسؤال عنه.. كذلك دل التحرى على أن «أوجينى» كانت ليلة الجريمة، خارج حدود «بوردو» فى صحبة أحد ضباط بوليس المدينة !.

شهادة فتاة كانت مع القتيل

وفيما عدا الدم الذى كان يلطخ البساط المجاور للسرير، لم يعثر فى الحجرة على أى أثر آخر للدم .. أما فى دورة المياه، فقد وجدت بعض لطخ بقرب حوض الغسيل، وكأنما غسل القاتل يديه فيه قبل فراره .وفيما عدا موسى الحلاقة التى استعملت فى الحادث – على ما رجح البوليس – كانت جميع أدوات التواليت كاملة.. أما الموسى، فلم عثر لها على أثر قط !..

وسرعان ما ذاع نبأ المأساة فى «بوردو» فأثار ضجة .. وفى عصر اليوم نفسه، تقدمت شابة فى العشرين من عمرها - اشتهرت باسم «نيشيت» - إلى رجال البوليس، فذكرت أنها قضت الليلة السابقة مع مسيو «أوكتاف» ..

وعجب المحقق، فصاح : كيف ذلك ؟..

- مالذى يدهشك ؟.. أجل قضيت معه الليلة السابقة.

- فى أية ساعة ؟..

- لقد ولجنا داره معا حوالى التاسعة مساء، بعد أن تناولنا العشاء فى مطعم موريه بشارع بورت ديجو .. وكان قد منح سائق عربته عطلة فى ذلك اليوم، فعدنا على الأقدام.

ودلت القرائن على صحة ذلك .. فلقد كان بيير جارنييه -وكان يقود العربة إلى جانب عمله- مدعوا للعشاء عند ابن أخ له، وقد عاد إلى الدار بعد عودة مخدومه والفتاة ببضع دقائق، فأعد لهما بعض الشراب، ثم لاذ بمخدعه ..

وقالت الفتاة للمحقق :

- كنت أفضل قضاء السهرة فى المسرح، لولا أن أوكتاف كان يشكو تعبا وبردا، فنزلت عند رغبته ، إذ كان رجلا طيبا .. وعندما مررنا بمسكنى - وكانت «نيشيت» تقيم فى شارع جوداثيك نفسه، فى منزل يقل رقمه عن رقم منزل أوكتاف بثلاثين - عرضت عليه أن يستغنى عن رفقتى مادام متعبا، ولكنه ضحك قائلا : «بل تأتين لتعنى بى» !.. وقد مكثت معه حتى الساعة الواحدة صباحا، إذ انتبهت لدقة الساعة .. ولابد أن ١٥ دقيقة ، أو ٢٠ مرت قبل أن أنصرف.

ولاح أن الفتاة كانت صادقة مخلصة، فقد تطوعت للشهادة دون أن يعرفها أحد، وذكرت أنها ترددت ساعتين قبل أن تقدم على ذلك إذ أنها لا تريد قط أن تقحم نفسها فى شؤون البوليس .. ولكن، لم لا يكون تطوعها حيلة لصد

الشبهات عنها إذا ما تحولت إليها ؟.. صحيح أن بيير لم يرها عند عودته للدار في المساء، إذ كانت فى دورة المياه، ولكنه كان يرى وجودها، لاسيما وأن سيده طلب الشراب لشخصين .. فضلا عن أن الخادم رأى قبعتها على مشجب فى الحجرة عندئذ كان أفرادا عديدين رأوها مع القتيل فى المطعم يتناولان العشاء .

ولكن أى حافز لـ «نيشيت» على ذبح أوكتاف؟.. لقد وجدت فى درج نصف مفتوح بالمنضدة المجاورة لفراش القتيل عشر ورقات مالية من فئة المائة فرنك واثنتا عشرة قطعة ذهبية لم تمسها يد .. ولقد كانت كل الغانيات اللاتى يترددن على المسكن، يعلمن أن العجوز كان يحتفظ دوما بمبالغ كبيرة من المال .. وشهدت «نيشيت» بأنها رأت الأوراق المالية فى الدرج قبل انصرافها، حين فتحه الرجل ليتناول منه القطعتين الذهبيتين اللتين قدمهما لها.. وذكر الخادمان أنه أخبرهما فى اليوم السابق على الجريمة، أن فى الدرج ألفا وثلاثمائة فرنك يستطيعان أن يأخذا منها ما قد يلزم لمصروف البيت .. ومن ثم لم تكن السرقة هى الحافز!

ولكن .. إذا لم تكن «نشيشت« هى القاتلة – وقد تأكد أنها غادرت القتيل فى الساعة الواحدة، وأثبت الأطبا الشرعيون أن الجريمة لم تحدث قبل الثالثة أو منتصف الرابعة – فكيف استطاع القاتل أن ينفذ إلى داخل الدار ؟..

التحقيق يزداد غموضا

لم يكن ثمة ما يدل على أنه اقتحم أحد الأبواب، أو مصاريع النوافذ .. ولقد قدر رجال البوليس كل الاحتمالات الممكنة.. ربما كان القاتل قد استعمل مفتاحا زائفا، أو لعل «نيشيت» كانت متواطئة معه، فمهدت له السبيل، ولكن .. بماذا يمكن تعليل وجود الأبواب كلها مغلقة بعد الجريمة ؟.. أيكون الخادمان أيضا متواطئين ؟ – أم لعلهما صاحبا الجريمة فقد كانت كل العوامل فى صفهما.. فإن صح هذا، فما الذى دعاهما لارتكاب الجريمة ؟..

ولقد اسفرت تحريات البوليس على أن القتيل لم يكن له أقارب ينتفعون من جراء وفاته، بأن يرثوه . ومن ثم كان من المنتظر أن تؤول ثروته وأملاكه إلى الدولة، لا سيما وأن البوليس لم يجد بين أوراقه وصية ما .

وهكذا كان التحقيق يزداد غموضا، كلما اتسع نطاقه !..

خطاب من مجهول ..

ولقد تلقى البوليس أثناء التحقيق خطابا غفلا من التوقيع، ألقى ضوءا علي بعض دقائق حياة مسيو أوكتاف الخاصة .. فقد جاء فيه أن القتيل كان على علاقة قديمة بامرأة ذات مكانة ، فكان يذهب إلى باريس فى كل شهر ليلقاها خفية، ليتبادلا الهوى، ولكن .. كانت الحسناء - كما زعم كاتب الخطاب - تعمل لحساب المخابرات السرية الايطالية فى فرنسا، وقد قامت بمعاونة «الكونتسة كاستيليونى» الجاسوسة المعروفة، بدور كبير عندما نشبت الحرب مع ايطاليا ..

وكان «أوكتاف» يعمل هو الآخر لحساب آل سافوا .. إلى أن كانت أواخر سنة ١٨٦٢، إذ حدث بينه وبين صديقته خلاف شديد، عنيف، مفعم بالتهديات .. أما ما جرى بين عامى ١٨٦٢ و١٨٦٧، فقد اعترف كاتب الخطاب بأنه يجهله، ولكنه أكد أن صديقة «أوكتاف» - وقد ذكر عنوانها - لن تتردد فى أن تفضى بكل شىء.

وكانت المهمة دقيقة، إذ كانت المرأة زوجة لصاحب مركز إدارى كبير فى الدولة .. ولو ثبتت صحة ما جاء فى الرسالة، لتطور الأمر إلى فضيحة كبيرة .. لذلك آثر البوليس فى البداية، أن يبحث عن صاحب الخطاب، وما لبث أن توصل إليه، فإذا به مخبول انتهى الأمر بإرساله إلى مصح الأمراض العقلية!..

وعاد الأمل يساور السلطات، حين تقدمت إلى بوليس «لانجون» - وهى قرية على مقربة من بورو - حسناء فى الثانية والعشرين من عمرها تدعى «لويز

ليسير»، فزعمت أن القتيل صارحها قبل الجريمة بيومين، بأن شخصا يدعى «ردويون» - كان يعمل فى خدمته كصراف حين كان يمارس التجارة. وكان يحرز وثائق ذات خطر على سمعة القتيل التجارية - هدده بافشاد سره، سعيا منه لابتزاز بعض ماله.

وقد دعاه القتيل لزيارته فى ٢ مارس ، وهو يعتزم أن لا يدفع له درهما واحدا .. وثبت من التحرى أن الخادمين لم يكونا يعرفان «درويون» هذا ، ولكنهما ذكرا أن غريبا طرق الباب فى الساعة الرابعة بعد ظهر ٢مارس، فاستقبله أوكتاف بنفسه فى الحال، واستبقاه حتى الخامسة.. ولم يبد ما يشتم منه أن المقابلة كانت عاصفة، بل أنهما تبادلا تحية هادئة عند الافتراق ..

وسعى البوليس حتى وجد «درويون» ، فما أن سمع القصة حتى انفجر ضاحكا ، دون أن يعروه أى اضطراب، وصاح :

- ان لويز كاذبة .. فلقد هجرتها منذ ستة أشهر أو سبعة، ومن ثم فهى تحاول أن تزج بى فى المتاعب .. والواقع أننى كنت فى تولوز فى ٢ مارس، لابرام صفقة تجارية .

وقد أثبت التحرى صدق قوله .. وخبا أمل البوليس سراعا ..

بقيت نقطة واحدة .. إن الفحص الطبى لم يستبعد أن يكون الحادث انتحارا، فقد كان الجرح فى موضع يسهل على أى يائس أن يناله بالموسى.

ولكن .. كان من المحتمل - إن صح هذا - أن يعثر البوليس على الموسى، ثم .. كيف يمكن تفسير الحالة التى كان عليها الجرح .. كيف يقدر الميت على أن يسحب الغطاء على جسده، ويضع طرفه تحت رأسه ؟..

وأخيرا .. لقد قرر الفحص الطبى أن الانتحار ممكن، لو أن الموسى كانت فى اليد اليمنى.. ولكن القتيل كان أعسر، لا يحسن البتة استعمال يده اليمنى.

زائرة فى منتصف الليل

لست أدرى ما الذى يزين للناس أن يتحدثوا عن شؤونهم للكتاب فى صراحة ما أظنهم يعمدون إليها مع أزواجهم أو أعز المقربين إلى قلوبهم !.. اننى أصعق أحيانا لاعترافات بعض الأصدقاء، إذ أنهم لا يتورعون عن ذكر أدق ما ينبغى أن يكتم من الأسرار.

لا تظننى مغاليا .. بل إنك لن تلبث أن ترى أننى كنت متواضعا، معتلا، فيما قلت، إذا قصصت عليك ما دار بينى وبين «فيليب هورتن» فى مشرب فندق «مانسفيلد»، ذت مساء.

إن فيليب – إن لم تكن تعرفه – ذكى، سريع البديهة، رقيق المشاعر، مما حببه إلى القلوب، وأكسبه عددا من الأصدقاء لم يحظ به سواه.

وبارنى فيليب إذ رآنى ألج المشرب :

– ما بك ؟..

فتهالكت إلى جواره قائلا :

– اننى مرهق .. لقد طلب إلى «السنوديو» أن أضع قصة لنجمة جديدة تعاقد معها ويريد أن يظهرها .. ولكن بنات أفكارى شاردات، يأبين أن يوافيننى بفكرة .

فأومضت عيناه وهو يتساءل :

– أهى قصة غرامية تلك التى تنشدها؟

وحسبت أن وراء سؤاله قصة، فأرهفت سمعى .. وماأن واتانا الساقى بالشراب، حتى شرع فيليب يقول :

– لدى قصة لك .. قصة كنت أفكر فيها منذ ساعة، فإن حوادثها وقعت

هنا .. فى هذا الفندق بالذات .. آنذاك يوم فتحت أبوابه للمرة الأولى منذ سنوات، وانطلقت الدعاية له فى كل مكان، بأنه أفخم فنادق أوربا وأرقاها؟.. لقد أغرتنى الدعاوة على أن أنتقل إليه إذ ذاك فاستأجرت فيه بضع حجرات كمستقلة.

«وأصارحك أننى أخذت فى البداية بما لاح لى من مميزات ظاهرة .. كانت الخدمة ممتازة، والسكون موفورا .. وكنت كلما استقللت المصعد، أصادف رجالا ونساء فى أبهى آيات الرشاقة والأناقة والثراء.

«وفى ليلة ماطر، ثائرة، آثرت أن أوى إلى مخدعى مبكرا، فانصرفت إلى القراءة والإنصات إلى برنامج موسيقى رائع، حملته أمواج الأثير خلال المذياع .. وفيما كنت مستغرقا فى نشوة الموسقى، إذا بطرقات خفيفة على الباب، تعكر على صفو وحدتى، وتنتزعنى من العالم الذى نقلتنى إليه الألحان، مما أسخطنى، وحفزنى على أن أتجاهل الطرقات، لولا أنها تتابعت فى الحاح مثير، فنهضت إلى الباب .. وشد ما بهت إذ رأيت فى الردهة فتاة – بل امرأة – رائعة الحسن، ذات عينين سوداوين واسعتين، وشعر أثيث، وفم تنم شفتاه عن عاطفة مرهفة، وكانت فى ثوب للسهرة كشف عن منكبين فاتنين، حمل أحدهما فراء ثمينا، بلله المطر.

«ووقفت مشوها أحدق فيها .. وكأنما لاحظت دهشتى، فبادرتنى متسائلة :

– أتسمح لى بالدخول ؟..

«وقبل أن يواتيها جوابى، كانت قد ولجت .. وألقت بالفراء على الأريكة ، ثم تهالكت جالسة، وتطلعت إلى، ثم سألتنى فى ألفة، وكأننا على تعارف قديم لا يجعل لسؤالها غرابة ولا عجبا :

– هلا قدمت لى شيئا من الشراب ؟..

«واعتذرت إليها عما عرانى من وجوم إنسانى أصول اللياقة وكرم الضيافة، وأسرعت فأحضرت شرابا لكلينا.. وساورنى الشك فى أنها قد تكون محتالة أو امرأة سوء، ولكن نظراتها محت تلك الهواجس سراعا.

«وأفرغت نصف كأسها في جرعة واحدة، ثم تطلعت إلى خلال عينيها العميقتين وقالت :

– انك غير ما توقعت تماما..

– وما الذى توقعته ؟..

– لست أدرى بالضبط ..

– إذن ، فقد جئتنى متعمدة أن تقصدى شخصى بالذات ..

«فهتفت فى شىء من الدهشة طبعا..

– ولماذا؟..

«والتقت نظراتنا، فإذا بها تدار وجهها فى راحتيها، وتنخرط فى البكاء، وهى تكرر فى أنين .. « آه .. لماذا؟.. لماذا ؟..»

ووجدتني لأول مرة محرجا، لا أدرى كيف أتصرف .. كانت غير ما عرفت من نساء ، فلم تطاوعنى نفسى على أن أعاملها كسواها.. على أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها، وجففت دموعها، وقالت :

– لشد ما أنا آسفة .. ما كان لى أن أعرضك لهذه التجربة.. هلا سمحت لى بكأس ثانية !

وأسرعت ألبى رغبتها ، وقد أخذت الأفكار تتضارب فى رأسى، لتبرير مقدم تلك المرأة، وتفسير موقفها.. على أننى لم أكد أعود بالشراب، حتى ألفيتها واقفة فى أبهى مظاهر الفتنة، وقد انصبت الأضوا على ثوبها الحريرى اللامع،

فأحاطت جيدها ببريق يهتف بالسحر والغواية .. وسارت إلي، فمدت لى يدا رخصة، بضة، وتطلعت إلى فى نداء.. وخفق قلبى لها، ولكننى كنت أقوى ما أكون سيطرة علي نفسى .. فلقد أدركت أن المرأة تعانى أزمة عصبية تعصف بكل كيانها، وعواطفها.

وفى سكون ورفق، قدتها إلى الأريكة .. وكانت ترتجف فى عنف، وقد اشتدت بها الثورة المحتدمة فى أعماقها.. وخيل إلى أننى أدركت ما بها، وأنا أقرأ ما ينعكس على وجهها من خلجات .. لم تكن تعانى أزمة عصبية كما ظننت فى البداية .. إنما كا نت أزمتها عاطفية..

وكان لابد من أن أتحايل حتى لا أواجهها في جفوة تصدمها .. كانت كشخص اعتاد أن يأتى وهو نائم أعمالا لا يفطن إليها، ولا قدرة له على السيطرة عليها، فلو أنك أيقظته أو نبهته وهو على حافة إحدى ناطحات السحاب، لما تردد فى أن يلقى بنفسه من حالق.

وكأنما خفت الأقدار لمعونتى أخيرا، فقد أرهقت المرأة ثوتها علي نفسها، فخارت أعصابها، وتهالكت فى مكانها نائمة .. ووقفت لحظة أتأملها.. كانت كالطفل الذي استثاره العناد، فإذا به يتمرد على كل شيء ، حتى على نفسه، ولا يلبث الاجهاد أن نهكه، فينهار.. ورحت أسائل نفسى .. ترى ما سر مأساتها؟.. أتراها عاشقة فقدت ثقتها فى الحب والوفاء ؟.. ولكن الخاتم الذى كان يزين أصبعها الجميلة كان ينم عن أنها زوجة .. لعلها كانت ثملة .. أو .. ولكننى لم أمض طويلا فى حيرتى وتساؤلى، فإن نومها لم يطل .. فمع أول مواكب النهار، رأيتها تهب من مرقدها .. وتلتفت حولها وفى نظراتها جزع، لم يلبث أن سرى عنها سراعا، وفاضت عيناها بطمأنينة وارتياح ..

ولم تشأ أن تنتظر ريثما تتناول ما آعده لها من فطور بسيط، بل أسرعت

إلى الباب، حتى إذا بلغته، ترددت عنده لحظة، ثم مدت لى يدها .. لا اليد البضة المغرية، وإنما يد قوية شدت على يدى فى حزم .. وقالت :

– شكرى لك يا سيدى .. نك ولا ريب فى عجب من هذه الزيارة الغريبة، ولكننى لا أقل عنك عجبا.. لقد كانت فورة الغضب، وثورة الكبرياء، فعميت عن كل شىء، وتمردت على كل اعتبار .. ولكنك كنت نبيلا، فى الوقت الذى لم يتورع فيه سواك عن اصطياد زوجات الغير.. إنك لم تجرب بعد ثورة الكبرياء المهيضة. ولكنك قد تجربها إذا علمت أن .. زوجى كان يقضى ليلته مع .. زوجتك ..

وقبل أن أستوعب كلامها، انفلتت خارجة ، واندفعت تهرول فى الردهة ..»

وقلت إذ سكت صديقى :

– حسنا .. وهل انتهت قصتك هنا؟..

فصاح :

– انتهت !؟.. وهل كنت تريدنى على أن أخبرها بأننى أعزب ؟.. وهل هى تركت لى الفرصة لذلك أو أننى شئته .. لقد كنت تنشد قصة حب ، فهاك القصة!..

مرتا .. سلطانة المغرب !

كان الجنرال «جورجو» رفيقا لنابليون الأول فى منفاه بجزيرة « سانت هيلين»، وقد نقل فى مذكراته العبارة الآتية عن لسان الامبراطور العظيم : «كانت سلطانة المغرب فى ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا. وقد جاء أخوها«فراتشكينى» إلى باريس وعرض على وزير الشؤون الخارجية أن يسافر إلى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا. فاعتقدت فى بادىء الأمر أن في المسألة نصبا واحتيالا. ولكن الوزير تثبت من الحقيقة فأعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض. وقد كللت المفاوضات بالنجاح، وبسط امبراطور المغرب حمايته على الفرنسيين هناك وأسدى الينا خدمات جليلة. فأرسلت إليه هدايا بنصف مليون فرنك».

هذا ما قاله الامبراطور الفرنسى للقائد الذى عاش معه فى المنفى. فمن هى تلك السلطانة الفرنسية التى تحدث عنها، والتى ولدت مثله فى جزيرة كورسيكا؟

اسمها «مرتا فراتشكين» واسم أبيها « جاك ماريا » وهو من سلالة الكونت فرانشسكو كولونا، النبيل الرومانى الذى استوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠. وقد ولدت مرتا فى ٢ يونيو سنة ١٧٥٦ ببلدة كوريارا الصغيرة، الرابضة بين الصخور على سفح جبل يشرف على البحر.

وكان البحر فى ذلك الوقت مسرحا لأعمال القرصنة، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من موانىء ايطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى، وكانت جزيرة كورسيكا عرضة لغزوات القراصنة من العرب والبربر، الذين كانوا ينزلون على شواطئها، ويسبُون النساء والبنات والشبان، ويبيعونهم فى أسواق الرقيق جريا على العادة المتبعة فى ذلك العهد، حيث لم يكن الرق قد ألغى بعد، وحيث كان الإنسان يستعبد الإنسان، والشعوب تستعبد الشعوب !

وحدث ذات يوم أن هبطت أسرة فراتشكينى من بلدتها إلى شاطئ البحر فى نزهة مسائية، فداهمها القراصنة وخطفوها وحمولها إلى سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجدتها، فوقفوا على الشاطئ ينظرون إلى السفينة تبتعد وعليها جاك ماريا وزوجته وولداه فنشنتى واوغستينو وابنته مرتا الصغيرة. وانقطعت أخبار الأسرة بضعة أعوام.

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولد ان إلى كورسكا، فرحب بهم أهل البلدة، وسألوهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا، فقص عليهم جاك ماريا قصته قال :

ذهب بنا القراصنة إلى تونس حيث عرضونا للبيع فى سوق الرقيق، فكان من حسن الحظ أن ابتاعنا أحد وكلاء الباى فأقمنا جميعا فى قصره، وعوملنا معاملة حسنة، ولكننا كنا فى عداد الأسرى الأرقاء، نقوم بالأعمال التى يعهد إلينا بها، ونبكى الحرية الغالية والوطن المفقود. ولم يكن بوسعنا أن نفكر فى الهرب لتعقد وسائله ولشدة الرقابة عند منافذ المدينة وعلى شاطئ البحر. فرضخنا لحكم القدر وبتنا ننتظر الخلاص من الرب القادر على كل شىء.

«قضينا فى الأسر والعبودية ثلاثة أعوام، كنت فى خلالها قد انصرفت إلى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة، وكان الله قد استمع إلى صلواتنا، فوفق لى أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها فريق من الضباط والجنود لاغتيال سيد البلاد، واسمه سيدى على باى، فأفضيت إليه بما علمت من أخبار المتآمرين، وكنت سببا فى انقاذ حياته. فأغدق على العطايا والنعم، وأعاد إلى حريتى، وأمر بأن تمهد لى سبل العودة إلى بلادى!

«تنفسنا جميعا الصعداء. وأسرعت إلى الميناء فاستأجرت سفينة صغيرة وخمسة من البحارة، وركبت مع الأسرة وانطلقت بنا السفينة ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة! غير أن كارثة جديدة حلت بنا، أشد هولا من الكارثة السابقة

.. فقد هجم القراصنة المغاربة سفينتنا وهى فى عرض البحر، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا، فقتلوا رجالها، وأضرموا فيها النار، وحملونا نحن إلى سفينتهم، وعادوا بنا إلى بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع في سوق الرقيق!.

«وكنا فى هذه المرة من نصيب أمير مغربى واسع الثراء والجاه، لم يشأ أن يفرق بيننا فاشترى الأسرة كلها دفعة واحدة، كما فعل وكيل الباى من قبل. وهكذا شاءت الأقدار التى أنقذتنا من الأسر والعبودية فى تونس، أن تعيدنا إليهما فى المغرب، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية، وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز!

«ولكننى جعلت أفكر فى الخلاص منذ اللحظة التى وطئت فيها أقدامنا أرض المغرب. وخطر لى فى الحال خاطر وضعته بلا ابطاء موضع التنفيذ فكتبت رسالة باللغة العربية إلى سلطان المغرب مولاى محمد، رويت له فيها ما حدث لى فى تونس، وكيف أننى أنقذت حياة الباى من كيد المتآمرن، وطلبت أن ينظر إلى وإلى أسرتى التى تصحبنى بعين العطف والتقدير. فرق السلطان لحالنا، وأبدى رغبته فى رؤتنا فذهبنا إليه فى قصره ومعنا السيد المغربى الذى اشترانا.. وبعد أن ثبت للسلطان أننى لم أكذب فيما أدعيت، أمر بأن يطلق سراحنا، وأن توضع تحت تصرفنا سفينة من سفنه، تحملنا إلى كورسيكا فى حراسة كافية تضمن سلامتنا، وتمنع وقوعنا فى أسر القراصنة مرة ثالثة!

«غير أن شيئا واحدا نغص علينا ما شعرنا به من فرح واطمئنان : فقد استرعت ابنتى مرتا، وهى اليوم فى الثالثة عشرة من العمر، أنظار السلطان بجمالها الباهر وشبابها الغض، فرغب فى الاحتفاظ بها فى قصره بين نسائه وجواريه، قائلا لى أنه سيجعل منها سيدة البلاد الأولى ويرفعها إلى أوج العلى والسعادةوالهناء!»

سكت جاك ماريا لحظة، وترقرقت الدموع فى عينيه، ثم استطرد قائلا :

«ولهذا أيها المواطنون والأصدقاء، فانكم تروننى عائدا الآن إليكم مع زوجتى وولدى، محملين بالتحف والأموال والأرزاق. ولكنكم لا ترون معنا تلك الابنة الحبيبة، التى اضطررنا إلى التخلى عنها هناك، والتى أرجو أن لا تطول غيبتها عنا!»

لم تطق الأسرة صبرا على هذا الفراق. وما مرت شهور على عودة جاك ماريا إلى بلدته كورسيكا، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطرة لانقاذ ابنته وانتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس. فجمع حوله فريقا من الجبليين الأشداء، وجهز سفينة أقلعت به وبرفاقه إلى المغرب، فاجتازت البحر بدون أن يلحق بها سوء، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب. ولكن الحظ العاثر أراد للكورسكيين أن يصلوا إلى «رباط الفتح» فى الوقت الذى كان فيه وباء الطاعون متفشيا فى البلاد. فأصيب جاك ماريا بالمرض الذى لا يرحم، ومات فى المدينة فى أول يونيو سنة ١٧٧٠ وهرول رفاقه مسرعين إلى سفينتهم وعادوا بها إلى جزيرتهم خائبين!

ومرت الأعوام بدون أن يتسرب إلى كورسيكا لا كثير ولا قليل من أخبار الفتاة المقيمة فى قصر السلطان مولاى محمد بفاس. وعبثا حاول أخواها وأمها الاتصال بها بوساطة القناصل والتجار وأصحاب السفن. فقطعت الأسرة كل أمل فى لقاء الابنة التى صار سكان القرية يسمونها «المغربية» فى حين أن المغاربة كانوا يسمونها «الافرنجية».

ولكن مرتا لم تيأس فى الاتصال بأهلها وعشيرتها. ففى سنة ١٧٨٦، رست فى ميناء كالفى على مقربة من بلدة كوربا، قافلة من السفن المغربية نزل منها جماعة من الأمراء العرب، يتبعهم حراس مسلحون، وعبيد يحملون عشرات

من الصناديق والأكياس : تلك هى البعثة التى أوفدتها مرتا فراتشكينى «سلطان المغرب» إلى بلدتها، بأمر من زوجها السلطان مولاى محمد بن عبد الله الحسنى!

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التى ملكت قلب مولاهم فأجلسها على العرش، وجعلها موضع ثقته، واتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلمة نافذة الرأى !

ما الذى حدث لمرتا بعد فراقها عن أبيها وأمها وأخويها فى مدينة فاس، وهى بعد فى الثالثة عشرة من العمر؟

لقيت الفتاة حظوة فى عينى السلطان، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاي محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويها، فجعل منها سيدة النساء فى حرمه، واتخذها زوجة له، وأحلها فى نفسه المنزلة الأولى.

كان مولاى محمد قد خلف اباه مولاي عبد الله على عرش المغرب فى سنة ١٧٥٧، فعرفت البلاد فى أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ. فقد عقد ذلك العاهل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الأوربية، وجلب إلى عاصمة ملكه لفيفا من الخبراء الأوربيين الذين هجروا بلادهم واتخذوا المغرب موطنا والإسلام دينا، فاستعان بهم لتحقيق طائفة من الإصلاحات في جميع مرافق الحياة، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبات مع الملوك والأباطرة والأمراء فى الشرق والغرب، وكانت زوجته السلطانة مرتا تتولى كتابة الرسائل إليهم، والرد على خطاباتهم، وتفضى إلى زوجها بآرائها الصائبة فى كل كبيرة وصغيرة من شؤون الدولة، فإزداد إعجابه بها، وتضاعف حبه لها.

وظللت مرتا تحدث السلطان عن أهلها وبلدتها، فأراد فى النهاية أن يستجيب لرغباتها، وأمر بأن توفد إلى كورسيكا بعثة تتولى البحث عن أسرة

فاتشكينى فى كوريارا، وتأتى بها إلى المغرب إذا شاءت، بعد استئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا فى ذلك الوقت .

تلك هى البعثة التى وصلت فى قافلة من السفن المغربية إلى ثغر كالفى، واطلعت سكان الجزية على حقيقة ما حدث للطفلة التى افتقدوها منذ أعوام.

وكتبت مرتا إلى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة إلى كورسيكا، فاهتم لويس السادس عشر بالأمر، وبعد بضعة أسابيع من وصول الرسل المغاربة إلى كوريارا، غادروا ميناء كالفى فى سفنهم، وقد انضمت اليها سفن فرنسية أخرى، تحمل أسرة فراتشكينى ورهطا من سكان الجزيرة، إلى بلاد المغرب ! وأمر مولاى محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن زوجته المحبوبة، فاصطف «الحرس الأسود» فى طريق القصر، وحيا الضيوف بقرع الطبول والنفخ بالأبواق ، واستقبل السلطان فى أفخم ردهات القصر أم زوجته وأخوها، وكان اللقاء مؤثرا، فألقت مرتا بنفسها بين ذراعى أمها التى لم تعرفها لأول وهلة، واستأذنت زوجها فى أن تقبل الأخوين اللذين افترقت عنهما وهما فى مقتبل العمر. وحلت الأسرة فى جناح من القصر، وقد غمرها الفرح واكتنفتها السعاة !

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتا سمتها أيضا«مرتا» وعللت النفس بأن ترزق ابنا قد يخلف أباه على العرش. لكن هذا الأمل لم يتحقق، فحصر السلطان وراثة العرش فى ابنه الأكبر يزيد، الذي رزقه من امرأة ارلندية كان أبوها قد اعتنق الإسلام واستوطن المغرب.

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها فى الخفاء. بل كان يكيد لأبيه ويتآمر عليه ويسعى لانتزاع الملك منه قبل موته. وبلغ الجحود بهذا الابن العاق أن رفع راية العصيان وجمع أنصاره فى الجبال، فقرر مولاى محمد أن

يعاقبه على غروره، ويقضى على ثورته فى مهدها، فحشد جيشا من حرسه الخاص وتأهب للزحف بنفسه على مقر الابن الثائر. ولكن يدا خفية دست له السم فى الطعام، فشعر السلطان بأن ساعته قد دنت، ودعا زوجته المختارة إليه، وهمس فى أذنها قائلا :

– مرتا .. لقد أحببتك وأخلصت لك بقدر ما أحببتنى وأخلصت لى ... ولك الآن أن تعودى إلى أهلك إذا شئت، أو أن تبقى فى هذا البلد المضياف معززة مكرمة.. ولكن احذرى يزيدا فقد يدس لك السم كما دسه لى. ولا تثقى إلا بولدى سليمان .. الذى أرجو أن ينتقم لى من أخيه، وأن يؤول إليه الملك من بعدى، لكى يحافظ على هذا الوطن قويا منيعا.

وأسلم مولاى محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية سلطانة المغرب، فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٧٩٠، الموافقة لسنة ١٢٠٤ للهجرة.

تحققت أمنية السلطان الراحل بعد موته، فلم ينعم مولاى يزيد بالملك طويلا، بل مات فى ظروف غامضة، واقتتل أخوته بضعة شهور، وانتهى ذلك الصراع بارتقاء مولاى سليمان بن محمد عرش أبائه وأجداده، وظل جالسا عليه حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٢٢.

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاى محمد، وقد نسج على منواله فى السياسة والإدارة، وأحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر الإكرام والإجلال، وكانت المسكينة قد فقدت ابنتها الوحيدة، فوجدت بعض العزاء فى معاملة السلطان الجديد لها، واجتماع أعضاء أسرتها حولها بعد طول الفراق.

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة ، قضاؤه على شرور القراصنة، ودعوته ملوك أوربا إلى التعاون معه فى تأمين السلامة للمسافرين فى البحار. وهو الذى

راسل الجنرال نابليون بونابرت، وكتب إليه يقول أن سلطانة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا، وكان يعنى زوجة أبيه مرتا فاتشكينى. وفى سنة ١٧٩٩، أوفد مولاى سليمان شقيق السلطانة السابقة، فنشنتى فراتشكينى فى بعثة إلى بونابرت. وفى أثنا وجود البعثة فى باريس، تفشى وباء الطاعون مرة أخرى فى المغرب، فأصيبت مرتا بالمرض القاتل كما أصيب به أبوها من قبل، وماتت فى ٢٥ يونيو سنة ١٧٩٩.

ماتت مرتا فراتشكينى سلطانة المغرب فى الأربعين من العمر، بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاى محمد، حلو الحياة ومرها نحو عشرين سنة. ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا منذ أن خطفت منه طفلة صغيرة ولم تترك أبناء ولكنها تركت ذكرى طيبة عطرة، وخدمت الوطن الذى تبناها بأمانة واخلاص ووفاء.

وفاء .. ولكن .. !(١)

قال صديقنا لاتورن وهو يقص علينا قصته :

كنت فى الحادية والعشرين من عمرى، أى أننى كنت قد بلغت سن الرشد، عندما قدم لى عمى امباوز حسابا عن إدارة الإرث الذى آل إلى عن والدى، وكان الحساب معدا بطريقة فنية بارعة، جعلتنى أجد نفسى خالى الوفاض لا أملك من حطام الدنيا شيئا، لا .. بل وجدت نفسى مدينا لعمى بمبلغ من المال !

فقد قال لى ذلك العم الطيب :

– لم يبق لك من مالك شىء يا ابن أخى !.. بل أن عليك لى ستة آلاف من الفرنكات .. ولم تكن حالتى أحسن من حالتك الآن، عندما كنت فى سنك !

فسألت عمى :

– ومن الذى جردك من مالك فى ذلك الوقت يا عمى العزيز؟

فاستشاط الرجل غضبا وقال :

– انك تشتم رجلا شريفا يا ابن أخى .. انك تشتم عمك وتسىء الظن به .. وتفقد فى آن واحد ما سوف يتركه لك من ميراث بعد موته.. ان دخولك فى معترك الحياة على هذا الشكل لايعد بداية حسنة !..

ثم تبادلنا طائفة من الشتائم التى من هذا النوع، وافترقنا!..

وفى اليوم التالى، وجدت نفسى وحيدا فى الشارع، لا سند لى ولا عون .. وتذكرت حينئذ أن لى عما آخر هاجر إلى الجمهورية الفضية بأمريكا الجنوبية، حيث انصرف إلى تربية الثيران والبقر والخيول .. فقررت السفر إليه.. وتمكنت من بيع ساعة ذهبية وأشياء أخرى بما يكفى من مال لدفع أجرة السفر بالباخرة

---

(١) المصور ٢٨ يوليو ١٩٥٠ – ١٣ شوال ١٣٦٩هـ .

«جويان» ورحلت نحو مصيرى الجديد، فوصلت فى النهاية إلى بلاد البامبا الشاسعة، حيث كان عمى «امابل» يقيم ..

ولم يستقبلنى هذا العم استقبالا سيئا. بل رحب بى قائلا :

– ان اللحم متوفر لدينا، وستجد دائما على المائدة حاجتك منه. وإذا سلكت معى سلوكا حسنا، فقد يجىء يوم تستطيع فيه أن تجمع ثروة لا يستهان بها ..

ووضع العم «امابل» ثقته فى منذ اللحظة الأولى، فعهد إلى باداة مزرعة من أملاكه الشاسعة، تفصل صحراء كبيرة بينها وبين المقر الذى يقيم فيه.

وعشت هناك فى تلك المزرعة بين جماعة من الناس انصاف المتوحشين ، من الهنود الحمر والمولدين وبعض البيض المهاجرين، وجميعهم يمتازون بقسوتهم وشراستهم وأخلاقهم السافلة !

وكان علينا، أنا وهؤلاء، أن نحرس قطعانا كبيرة تضم ثلاثة آلاف ثور وألفى حصان وعشرة آلاف من الخرفان!

وكان بين الرجال الذين توليت أمرهم، رجل من المولدين يدعى لويس كولورادو، وجدت منه وفاء واخلاصا فجعلت أعطف عليه عطفا خاصا. وحدث مرة أن أشرف على الغرق في النهر، فألقيت بنفسى فى الماء وانتشلته وأنقذت حياته. فركع الرجل أمامى، وقبل ركبتى كما هى العادة عند القوم هناك، وقال لى بلهجة مشبعة بالصدق والتأثر :

– يا سيدى !.. لو حدث يوما أن ضايقك أحد، أو هددك عدو، وأردت أن تتخلص منه، فما عليك إلا أن تشير إلى بحركة من أصبعك، لكى أفهم وأقدم على العمل!..

قال هذا وأشار إلى خنجره ..

غير أننى لم أعلق أية أهمية على هذه العبارة ، وأصبح «كولورادو» منذ ذلك اليوم يتفانى فى خدمتى، ويترقب الفرص لإرضائى، ويتبعنى فى كل مكان مثل ظلى .. وكان إخلاص الرجل لى مؤثرا إلى حد أننى أصبحت مع الوقت لا أطيق فراقه ولا أستطيع الاستغناء عنه لحظة واحدة .

ومرت الأيام والسنون ..

وبعد انقضاء أربعة أعوام على مجيئى إلي رياض البامبا، غادرت مزرعتى للمرة الأولى، وقادتنى المصادفات إلى مزرعة مجاورة يملكها السنيور الفاريز أزفيدو. وكانت تلك الرحلة بمثابة تحول فى مجرى حياتى، بل أعظم حادث فيها .. فقد استقبلنى الفاريز أزفيدو بالترحاب اكراما لعمى «أمابل»، وأقمت فى ضيافته ثمانية أيام لم يدخر مضيفى خلالها وسعا لتوفير أسباب الراحة والتسلية لى، وكانت أسرته كلها تشاركه فى هذا وتساهم فيه .. واسترعت أنظارى على الخصوص ابنته الكبيرة الدونا بلنكا .. والنساء الأمريكيات المنحدرات من أصل أسبانى يبلغن – إذا أردن – من الجمال مبلغا لا يعادله جمال فى العالم، وينبعث منهن تيار جذاب لا يضارعه تيار من نوعه بين نساء الشرق والغرب !.. فلا غرابة إذن فى أن يسحرنى جمال الدونا بلانكا، وأن أجد نفسى، بعد الإقامة ثمانية أيام فى بيت أبيها، وقد وقعت فى حبها وأصبحت أسير عينيها!..

عدت إلى المزرعة مرة بعد مرة .. وتملكنى الحب إلى حد لم أعد أطيق معه صبرا، وبادلتنى بلانكا عاطفة بعاطفة، ورضت بأن أفاتح أباها فى أمر زواجنا .. ففعلت.

وأصغى إلى الفاريز أزفيدو هادئا مفكرا، ثم قال لى :

– سأعطى ابنتى مبلغا كبيرا من المال عندما تعقد زواجها. فماذا تملك أنت؟ وماذا تقدم لها مقابل الثروة الضخمة التى ستقدمها هى ؟

فاضطررت إلى الاعتراف بأننى لا أملك شيئا، وأن مصيرى معلق بإرادة عمى «أمابل»، وأن الأمر بيده دون سواه.. فقال الفاريز:

– إذن ، عليك أن تستشير عمك وتأخذ رأيه وتعرف نواياه .. وبعد ذلك سوف نرى !

وأسرعت إلى عمى «أمابل» وأطلعته على ما حدث، فزجرنى قائلا :

– ان حصتك فى استثمار المزرعة تبلغ نحو عشرين ألف بيزو. وأنا مستعد لدفع ما يصيبك من أرباح سنوية. ولكن كرمى يقف عند هذا الحد.. ولست من الرجال الذين يخلعون ثيابهم قبل أن يحين وقت النوم .. فلا تنتظر منى أن أحرم نفسي من ثروتى، أو جزء منها، قبل أن أموت ! وعليك أن تدبر أمرك على هذا الأساس ! وبعد وفاتى ، سوف ترثنى.

لم يكن المبلغ الذي ذكره عمى كافيا لإغراء والد الفتاة، فهو مبلغ لا يذكر بالنسبة إلى ثروات الملاك الطائلة فى تلك البقاع .. وإذن ، فالزواج لن يتم !

وتولانى اليأس .. وظلت صورة الدونا بلانكا تلاحقنى فى صحوى ومنامى فى البيت وفى الحقل.. وفى كل مكان .. وقد أثر ذلك فى صحتى فاعتلت وانتابني ضعف وهزال، وغارت عيناى فى وجهى.

وكان «لويس كولورادو» أشد حزنا منى، وأبعد تأثرا مما حدث. وكان دائما يردد على مسامعى :

– ماذا تريد منى أن أصنع ؟ قل لى يا سيدى، ماذا تريد منى أن أصنع؟

وكنت أجيبه بلهجة كلها يأس وخور :

– لا شيء ! لا فائدة من صنع أى شيء يا لويس .

ولكن الخادم الأمين كان يرمقنى بنظرات غريبة، ثم يحبس نفسه فى صمته التقليدى الرهيب.

وصرت من ناحيتى أبحث عن السلوى حيث أجدها، فجعلت أقوم برحلات ومغامرات طويلة فى السهول والجبال. وحدث فى النهاية أن عدت من مغامرة خطرة منهك القوى، فمضت واضطررت لملازمة الفراش. وظل «كولورادو» بجانبى يقوم على خدمتى، ويتمتم دائما بكلمات لا أفهمها ولا أدرك معناها ..

كان يأخذ بيدى كل يوم ويقودنى إلى شرفة الدار، فأجلس فى مقعد وثير، وأمامى الأفق البعيد، والطبيعة الزاهية، فأفكر، وأرخى العنان لمخيلتى.. فيزداد بى الشوق إلى بلانكا، وأشعر برغبة فى التخلص من هذه الحياة، وأتمنى الموت بكل جوارحى !..

وفى ذات يوم ، جاءنى «كولورادو» مستأذنا فى الذهاب إلى قريب له، والعودة فى وقت وجيز ..

طالت غيبة الخادم الأمين، فتضايقت وانزعجت. وبينما كنت فى صباح يوم من الأيام جالسا كعادتى على شرفة الدار، إذا بـ «كولورادو» يدخل وعيناه تلمعان وعلى شفتيه ابتسامة عريضة. كأنه أم عادت إلى طفلها بعد غياب طويل ..

سألته بلهفة :

– من أين أنت عائد يا لويس ؟

– من الناحية الأخرى من الصحراء؟

أدهشنى هذا الرد فطلبت المزيد من الإيضاح. ولكنه أشاح بوجهه، وتجنب النظر إلى، وأحنى رأسه، وقال متمتما :

– يا سيدى .. لقد وقعت مصيبة .. ان عمك «أمابل» سقط عن جواده .. فتحطم رأسه على الصخر ومات.

فانتفضت .. وقد تلاطمت فى رأسى المخاوف والشكوك، وصحت به :

– لويس ! .. انبئنى بحقيقة ما حدث !.. ألا تكون أنت الذى ..

لم أتم عبارتى وحدقت فيه البصر. فهز الرجل كتفيه. وارتسمت على شفتيه ابتسامة كلها هزء وسخرية .. ثم قال :

– هذا مقدر يا سيدى .. هذا مصير إرادة الله .. لقد هاج الحصان فجمح به .. وسقط عمك فقتل .. أمام ثلاثة شهود !

لكننى صحت به مرة ثانية :

– أنت الذى قتلته ! أنت ! لكن ابتسامته الساخرة عاودته :

– لا يوجد دليل واحد على هذا، لا فى الأرض ولا فى السماء !

قضيت شهرا فظيعا، تملكتنى فيه الهواجس. وانتابنى وخز الضمير ..

نعم ، لقد مات عمى وأصبحت وارثه الوحيد،وفى وسعى بعد هذا أن أتقدم إلى الفاريز أوزفيدو رافع الرأس، وآخذ منه ابنته الحسناء زوجة لى .. هذا كله صحيح ..

وصحيح أيضا أن عمى سقط عن حصانه فمات لساعته .. وأن ثلاثة شهود من رفاق «كولورادو» رأوا هذا بأعينهم.

وصحيح أنه لا دليل على إدانة الخادم الأمين الوفى، لا فى الأرض ولا فى السماء ! ولكن هذا كله فظيع .. وقد يكون الوفاء أحيانا ملوثا بالشر.. قد يكون الوفاء بالغا من الشدة مبلغا يجعله والإجرام سواء بسواء !

ان «لويس كولورادو» قتل عمى لكى أرثه، وأتزوج المرأة التى أحب !

وسألنا صديقنا «لاتورن»، بعد أن قص علينا قصته المثيرة :

– وهل تزوجت بلانكا الحسناء فى النهاية؟

فأجاب ونظراته سابحة فى الفضاء :

– وهل كنتم تصنعون غير هذا، لو كنتم مكانى ؟

البقرة الأرمنية !

كان الليل قد انتصف عندما أوفد السلطان إبراهيم أحد خصيانه المقربين إلى يوسف أغا. وأحمد أغا، وكوبر أغا، ليبلغهم رغبة مولاه فى أن يوافوه بلا إبطاء فى حجرة نومه. وأسرع الرجال الثلاثة مهرولين ، تلبية لأمر البادشاه.

أما يوسف أغا، فهو أسير روسى أحبه السلطان وأعتقه وألحقه بخدمته فى القصر. وأما أحمد أغا، فهو دجال هنغارى، عرف كيف يستحوذ على رضا السلطان ويستدر عطفه، فألحقه إبراهيم أيضا بخدمته. وأما ثالث الثالوث، فهو اليونانى كوبر موسليوغلى، المشعوذ الذى يبتلع النار ويزرع فى جسمه الدبابيس والخناجر بدون أن تسيل منه نقطة دم واحدة . والسلطان يرتاح إلى مجالسة هذا القزم المهرج. وينزله فى القصر منزلة الأخصاء. وقد قطع الثلاثة كل علاقة بأوطانهم وقومهم ودينهم. فأصبحوا مسلمين من رعايا السلطان إبراهيم الأول، وموضع ثقته، وأحب رجال حاشيته إليه.

أولئك هم الذين دعاهم السلطان إلى حجرة نومه فى تلك الليلة. وكان ينتظرهم مرتديا ثوبا من الفرو الناعم، وحوله سرب من الجوار البيض، حاملات المباخر والقماقم، وقد عبقت الحجرة بالروائح الطيبة والعطور النادرة.

وانحنى الرفاق الثلاثة وقبلوا الأرض بين يدى سيدهم وولى نعمتهم، وقال كوبر اليونانى :

– نحن فى خدمة البادشاه ورهن إشارته فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار!

ورحب بهم إبراهيم قائلا :

– لم يساورنى شك فى ذلك. ولهذا، فقد عهدت إليكم من قبل بأكثر من مهمة وما دعوتكم الآن إلا لكى أعهد إليكم بمهمة جديدة من هذا النوع.

– نحن طوع أمرك يا مولاى. ومهما تكن الصعاب القائمة فى سبيل تلك المهمة، فإننا سوف نذللها ونتغلب عليها .

– اسمعوا : لقد تعبت من النظر إلى هذا العدد الذى لا حصر له من النسا، أريد شيئا جديدا .. شيئا لم تقع العين على مثله بعد فى حرم السلاطين ، ولم يتمتع به بعد أحد من أسلافى، ولن يتمتع به أحد فيما بعد من خلفائى !

ونظر الثلاثة بعضهم إلى بعض، بدون أن يفهموامايريده منهم السلطان. واستطرد إبراهيم قائلا :

– لا تتبادلوا النظرات فسوف تفهمون : اننى أريد منكم أن تجدوا لى امرأة تمتاز عن جميع نساء القصر، من زوجات ومحظيات وإماء، لا بحسنها، ولا بجمالها، ولا بدلالها، ولا بشىء مما يمت بصلة إلى الدلال والجمال والحسن، بل بشىء يعده الناس فى عرفهم الأعوج من ظواهر القبح والبشاعة وأعده أنا، فى نظرى الخاص إلى المرأة من أروع مستلزمات الكمال فيها.

وعاد الثلاثة إلى تبادل النظرات بدون أن يفهموا، فصاح إبراهيم بهم بصوت ينم عن الغضب : « اسمعوا إلى النهاية لكى تفهموا وتدركوا وتعلموا ما أريد : إن النساء اللواتى فى القصر جميعا يخضعن لقوانين الطبيعة. والمرأة التى أتوق إلى اقتنائها يجب أن تكون خارجة عن القوانين وفلتة من فلتات الطبيعة !». وقال اليونانى : « بدأنا نفهم يا مولاى!».

وواصل إبراهيم التعبير عن فكرته : «أريد منكم أن تبحثوا لى عن امرأة تكون أطول النساء قامة، وأضخمهن جسما.. امرأة يكون لها صوت كزئير الأسد وذراعان أصلب من الحديد، وفخذان كهذه الأعمدة التى يقوم عليها سقف الحجرة، وفم يبتلع الدجاجة فى لقمة واحدة، ولسان أطول من لسان البقرة..»

قال السلطان هذا وهو يحدق البصر فى رجاله الثلاثة، فأدرك، عندما وصل إلى هذا المقطع من كلامه، انهم أوشكوا أن يضحكوا، فضحك قبل أن يسبقوه !

وفعل الثلاثة مثله. ولكنه قاطعهم مستأنفا حديثه : «قلت اننى أريد لسانها أطول من لسان البقرة .. وأضيف على ذلك أننى أريدها كلها مثل البقرة .. وأريد أن يقول الناس فى مستقبل الأيام، وحقبة بعد حقبة، أن السلطان إبراهيم الأول تزوج أضخم امرأة عرفها العالم من قبله ومن بعده !.. اذهبوا ..»

وذهب يوسف أغا، وأحمد أغا، وكوير موسليوغلى، وهم يتساءلون : «ألا يزال عقل السلطان فى رأسه، أم انطلق منه بلا أمل فى رجعة ؟»

ولكنهم أدركوا أن عودتهم لى القصر معناها الموت الأكيد، إذا لم يجلبوا إليه معهم أضخم النساء !..

وطافوا فى أرجاء المملكة طولا وعرضا، وهبطوا المدن وبحثوا في القرى والمزارع والحقول، وبثوا الأعين فى كل مكان.

وكللت فى النهاية مساعيهم بالنجاح، فعثروا فى جبال أرمينا، وفى أسرة رقيقة الحال، على فتاة دون العشرين من العمر، تتوفر فيها جميع الشروط التى فرضها عليهم السلطان فى الليلة التى ظنوا فيها أن ساعتهم الأخيرة قد دنت ..

رفض أهل الفتاة أن يسلموها لزبانية السلطان فاختطفوها وحملوها إلى مولاهم وطار إبراهيم الأول من الفرح !

فقد كانت الفتاة الأرمنية حقا فلتة من فلتات الطبيعة.

ونفح السلطان رسله الثلاثة بمكافأة عظيمة ، وقال لهم راضيا مسرورا : «أنها بقرة بشرية كما أردتها أن تكون !»

وعرفت المحظية الجديدة بين النساء والخدم ورجال الحاشية باسم «البقرة الأرمنية» وكانت جديرة بهذه التسمية !

فإن تلك البقرة التى أرادها إبراهيم خليلة له، على أمل أن تلد له ابنا فينعم عليها بلقب سلطانة ويعدها زوجة من زوجاته، كانت تبلغ من الطول نحو مترين ونصف، وتزن من الأرطال ما يوازى في حساب هذه الأيام ثلاثمائة كيلو!.. وقد

أصدر السلطان أوامره لاعداد جناح خاص لها فى أحد قصوره، فاضطر العمال والصناع إلى توسيع الأبواب وتعلية عتباتها، وصنعوا لها سريرا بحجم خمسة أسرة عادية من أسِرة الحريم وكانت تلتهم فى وجبة واحدة خروفا كاملا، وتشرب زلعة من الماء، وخصها إبراهيم بثلاثة من الطهاة، وعشرة من الخدم، وعشرة من الجوارى، لتأمين راحتها وإعدا الطعام والشاى لها.

وانصرف إبراهيم الأول بكليته إلى التمتع بذلك التل المتنقل من اللحم والشحم، ونسى بين أحضان البقرة الأرمنية، زوجاته ومحظياته وجواريه. بل انه اتخذها دون سواها مرشدة له فى كل كبيرة وصغيرة، وأهمل من أجلها نصائح أمه السلطانة الوالدة «قوسم» وإرشاداتها، مما جعل الأم والزوجات والمحظيات والجوارى يتفاهمن ويتآمرن على الغريبة التى جاءت تنغص عليهن العيش.

حاولت أمه أن تبعده عن تلك المرأة العجيبة. أو أن تضعف من نفوذها عليه، فكانت النتيجة أن منح إباهيم البقرة الأرمنية ولاية دمشق، وأمر بأن تحمل لقب «والى خاتم !».

وأدركت السلطانة الوالدة قوسم أنه لم يبق أمامها غير وسيلة واحدة للتخلص من المرأة، وهى الوسيلة التى كان الالتجاء إليها شائعا فى ذلك العصر .. قالت والدة السلطان :

– اسمح لها يا بنى بأن تلبى دعوتى، وأنا الكفيلة بحمل جميع نساء القصر على ملاطفتها والتحبب إليها..

وصدق الابن أمه، وسمح لحبيبته الضخمة بأن تذهب لقضاء الليل فى الجناح المخصص للسلطانة الوالدة، حيث أعت قوسم وليمة للنساء بلا تفريق ولا تمييز.

وأكلت المدعوات وشربن هنيئا مريئا. وللمرة الأولى منذ دخولها قصر السلطان، رأت الأرمنية الوجوه تبتسم لها وتحرب بها.

فقبيل منتصف الليل، دخل القاعة التى جلست فيها قوسم وزوجات السلطان والمرأة المحتفى بها، عشرة من خصيان السلطانة الوالدة، وفى يد كل منهم حبل من القنب.

وأحاط بها الحصيان فحاولت النهوض ولكنها لم تستطع. وامتدت نحوها عشرون من الأيدى بحبال القنب والتفت الحبال حول ذراعيها وصدرها وعنقها، فجأرت البقرة الأرمنية وملأ خوارها القاعة الفسيحة.

وانهار الجبل المتحرك على الأرض كومة هامدة .

وانطلقت النساء نحو جناح السلطان صارخات باكيات، وقد حللن شعورهن ولطمن خدودهن، ناعيات حبيبة إبراهيم التى أسرفت فى التهام الطعام والشراب فماتت من التخمة.

وصدق إبراهيم أمه، وبكى الحبيبة، وحبس نفسه فى حجرته شهرا كاملا..

ثم بحث عن غيرها بين نسائه الكثيرات، وبين أفواج الحسان التى كان النخاسون يسوقونها إليه يوما بعد يوم، فوجد ضالته المنشودة فى امرأة أخرى أنسته البقرة الأرمنية التى ماتت خنقا، والتى لم يعرف العالم فى الماضى - وقد لا يعرف فى المستقبل - امرأة فى ضخامتها.

وفى سنة ١٦٤٨، ثار الجيش على إبراهيم، وتآمر الوزراء والعلماء مع الثائرين، بل قيل أن السلطانة الوالدة نفسها اشتركت فى تلك المؤامرة ، فدخل الخصيان على السلطان فى حجرته، وخنقوه أيضا بحبل من القنب، عملا بالتقاليد المرعية فى قصور السلاطين!

حدث ذلك فى سنة ١٦٤٨، وكان إبراهيم الأول فى الواحدة والثلاثين من العمر، ولم يمض على ارتقائه عرش آل عثمان غير ثمانية أعوام.

من قتل الممرضة ؟

فى الصباح الباكر روع سكان إحدى العمارات بصرخات تنبعث من الدور الأرضى حيث تسكن الآنستان الممرضتان زينب و سميرة .. وأسرع البواب وبعض الجيران صوب الصوت ليجدوا سميرة حائلة اللون، زائغة البصر، وقد استندت إلى باب مسكنها وهى تشير فى ذعر إلى مخدع زميلتها فى السكن ، زينيب، .. وتخطى من تجمع من الناس سميرة واتجهوا إلى الحجرة التى أشارت إليها، وما لبثوا أن وقفوا مذهولين فزعين أمام جثة زينب، وهى تتأرجح فى الفضاء وقد شدت من عنقها إلى حبل متصل بسلك المصباح الكهربائى.. فطيروا الخبر إلى البوليس وإلى النيابة.

وانتقلنا إلى العمارة مسرعين ومعنا الطبيب الشرعى الذى تصادف وجوده ساعة إبلاغ الحادث بدار النيابة.. وعاينا المسكن المكون من أربع غرف : مخدع المجنى عليها ومخدع زميلتها، وحجرة استقبال، والرابعة للطعام، ومدخل فى الصالة .. وعاينا مخدع المجنى عليها، كان عبارة عن سرير صاج ، ودولاب من نفس النوع، ومرآة مثبتة فى الحائط، ومقعد كبير وقطعة سجاد صغيرة .. وكانت الجثة مدلاة من حبل شد إلى حبل النور..

وأنزلت الجثة فألفيتها لفتاة فى مقتبل العمر، سمراء البشرة، سوداء الشعر، حلوة القسمات .. وشاهدنا بالعنق والوجه بعض سحجات ظفرية، وبأعلى الذراع الأيمن جرح عضى كامل الاستدارة .. كما شاهدنا بالبنصر الأيمن علامة تدل على أن ثمة خاتما نزع منه .. وطلب الطبيب الشرعى نقل الجثة إلى المشرحة كى يقوم بتشريحها لمعرفة سبب الوفاة.

وبدأت أنا فى اثبات المعاينة ووصف كل ما شهدناه، ثم أخذت فى سؤال سميرة زميلة المتوفاة .. قالت وهى بادية الحزن أنه تربطها بزينب منذ سنوات

رابطة صداقة متينة وأنهما كانتا زميلتين في مدرسة المرضات ولما أتمتا دراستهما التحقنا بمستشفى واحد، واقامتا سويا فى هذا المسكن. وقد حضرت مساء الليلة السابقة مبكرة عن زميلتها، وبعد أن تناولا العشاء استمعتا إلى بعض الأغانى من الراديو إلى حوالى الساعة ١١ مساء ثم آوت كل منهما إلى مخدعها.

ولما استيقظت فى الصباح وتهيأت للخروج وجدت أن زميلتها لم تكن قد استيقظت بعد فطرقت بابها وانشغلت باعداد الفطور. ولما انتهت منه أهمها أن صديقتها لم تستيقظ فعادت تطرق الباب دون أن تسمع لطرقها أو ندائها جوابا، فدفعت الباب ووجدته غير مغلق بالمفتاح، ولما انفتح انعقد لسانها من الهول والرعب فقد ألفت زميلتها على النحو الذي رأيناها عليه، وبعد فترة تمالكت نفسها واندفعت تصرخ حتى حضر إليها البواب والجيران !

وقبل أن أتم استجواب المرضة سميرة إذا بالطبيب الشرعى يتصل بى وينهى إلىّ أن وفاة المجنى عليها نتيجة اسفكسيا كتم النفس وليس الاختناق ولذلك فالحادث عمدى لا انتحار.

كان هذا الخبر غريبا حقا لأنه جعلنى أرتاب الآن فى سميرة وأشك فيها.. فحصت يديها وملابسها، وأعدت مناقشتها فيما ظهر من تقرير الطبيب الشرعى، فقالت أنها ذكرت كل ما رأته، ولما سئلت كيف لم تشعر بارتكاب الحادث وهى تجاور زميلتها، قالت أنها سمعت صوت خبط فى غرفة زميلتها ما لبث أن انتهى، وأنها لم ترتب فى ذلك الصوت .

وبعثت بالمرضة سميرة إلى الطبيب الشرعى لفحصها سريعا.. والبت التحقيق فسألت البواب فقال أنه لما سمع صراخ سميرة هرع إليها وخلفه بعض الجيران فوجدها مضطربة خائرة القوى، وأشارت له إلى غرفة زينب، فلما دخلها وجدها معلقة من الحبل.. وقال أن المرضتين تسكنان العمارة من زمن

بعيد، وكانت علاقتهما طيبة، وكانتا مثال الاستقامة غير أنه لاحظ أن نفورا وقع بين الصديقتين، وأنهما كانتا كثيرا ما تتشاجران، وأن سميرة كانت دائمة التحرش بزميلتها، وأنه فى ليلة الحادث سمع صوت صياحهما.

وكانت سميرة محتدة، وقد سمعها ترمى صديقتها بأنها خطفت منها خطيبها. وأنها لابد أن تنتقم منها لذلك ! وأضاف أنه علم من المتوفاة أنها تريد أن تترك المنزل، وأنها بسبيل البحث عن مسكن تقيم فيه مع زوجها عندما يتم الزواج الذى كان مزمعا عقده بعد أيام .. ولم يكن لدى الجيران ما يقولونه أكثر مما قاله البواب.

ولما سئلت زميلات القتيلة فى العمل أجبن أن زينب وسميرة كانتا صديقتين، وكانتا دائما متلازمتين، ولكن وقع من أسابيع نفور بينهما يرجع إلى أن سميرة رمت زينب بأنها اختطفت منها خطيبها .. وأن سميرة كانت كثيرة الغيرة من صديقتها ، وأنها كثيرا ما تسبها وتتوعدها بالأذى والانتقام، وأنها كانت تثور إذا ما رأت السلك الذهب الذى ينتهى باطار يحوى صورة زينب وصورة خطيبها، وكانت تعلقه فى جيدها!

وسألت خطيب زينب، وهو موظف بإحدى الشركات يتقاضي مرتبا لا بأس به.. إنه يمت بصلة القربى لسميرة، وأنه عرف عن طريقها زينب .. وقد أحبها فى قلبه لدماثة خلقها ولين طبعها، فتودد إليها وعرض عليها أن تتزوجه، فرفضت أول الأمر خشية أن يكون مرتبطا بسميرة، لكنه نفى لها فكرة قيام هذا الارتباط فقبلت خطبته .. وما أعلنا خطبتهما حتى ثارت ثائرة سميرة وجعلت تؤذي صديقتها بمناسبة وغير مناسبة، وتسبها وتشيع أنها أخذت منها خطيبها.. وذكر أنه فى يوم قدم لخطيبته سلكا ذهبيا باطار ، وما أن رأته سميرة وفيه صورة الخطيبين حتى هاجمت زينب وقطعت السلك فأعاد إصلاحه ورده إلى خطيبته .. وانتهى إلى القول بأنه تلقى خطابات تهدده بقتل زينب إن لم يعدل عن

خطبتها .. وكذلك تلقت زينب مثل هذه الخطابات .. لكنه لم يحفل ولم يهتم .. وقال أن خطيبته شكت له من سميرة ومن خشيتها أن تعتدى عليها لكثرة ما توعدتها وتهددتها، وألقى بقوله هذا ظلا ثقيلا من الشبهة على سميرة..

ولما حضرت أم القتيلة أصرت على أن سميرة لابد أن تكون قد قتلت وحيدتها بنفسها أو بوساطة آخر..

وجاء تقرير الطبيب الشرعى وإذا به يتضمن أنه وجد بأظافر سميرة بعض قطع صغيرة من جلد تبين أنه من عنق المجنى عليها .. وأنه لما أخذ بصمات أسنان سميرة وجد أنها هى التى أحدثت الجرح العضى بذرا ع القتيلة .. وأكثر من هذا بعث مندوب إدارة تحقيق الشخصية بتقرير جاء فيه أنه وجد على سرير القتيلة بصمات أمكن رفعها وظهر أنها لسميرة!

سئلت سميرة فى ذلك فقالت أنها حقيقة تشاجرت مع زينب ليلة الحادث بسبب الخطبة لأنها كانت تظن أن فؤاد أفندى وهو قريبها سيخطبها هى لا زينب .. ونشأ عن الشجار أن عضتها وأعملت أظافرها فى عنقها.. ولما سئلت عن ماهية الصوت الذى قالت أنها سمعته ليلا قالت أنها لا تذكر وأنها لم ترتب فى هذا الصوت..

ولما سئلت عن البصمات المرفوعة من على السرير والتى ظهر أنها لها دهشت وسكتت، ثم عادت وقالت أنها لا تدرى كيف انطبعت بصماتها على حافة السرير من جهة الرأس. ولما سئلت عن الخاتم والسلك ذى الاطار الذهبى والذى كان بعنق القتيلة ولم يعثر عليه. أجابت أنها لا تعرف أنه اختفى.

وإذا كان القتل باسفكسيا كتم النفس. فكيف علقت الجثة فى السقف ؟.. لم تحر سميرة جوابا، وسكتت .. من الذى يهمه أن يوهم أن الوفاة حصلت انتحارا لا قتلا؟.. صمتت ولم تجب !

فتشنا غرفة سميرة ووجدنا فى مفكرتها عبارات تنطق بالمرارة والحسد الذى تكنه لزينب .. كتبت فى صحيفة عنها «لا هناها الله وكدر عيشتها».. وفى صحيفة أخرى «الملعونة الساهية» وقبل الحادث بيوم كتبت «لو أراحنى الله منها لسعدت بدنياى». وواجهتها بهذه العبارات فارتج عليها وسكتت وراحت تبكى .. أهو بكاء الحيرة أم سلاح المرأة إذ تفقد أسلحتها جميعا ويسقط فى يدها؟

لم يكن بعد هذا كله بد من القبض على الممرضة سميرة وزجها فى السجن، تمهيدا لتقديمها لقاضى الإحالة ليحيلها إلى محكمة الجنايات بتهمة القتل عمدا ومع سبق الاصرار وهى تهمة عقوبتها الإعدام..

وقدم المحامون عن سميرة معارضات فى حبسها لكنها كلها رفضت واستمر حبسها .. وكلما أحضرت المتهمة لجلسة المعارضة كانت تبدو أكثر هزالا ونحولا وتبدو ممتقعة اللون، غائرة العينين، وكانت تقسم فى حرارة أنها بريئة .. بريئة رغم هذه الأدلة وتلك القرائن .. الباعث على القتل موجود، والوعيد قائم، والشجار قد وقع، والسحجات فى العنق من أظافر المتهمة، وعض الذراع من أسنانها والبصمات على السرير بصماتها.

وأعددت تقرير الاتهام عن هذا الحاث المروع البشع الذى أكثرت الصحف من الحديث عنه .. لم نكن نشك لحظة ونحن نزن الأدلة أن المتهمة سيحكم بادانتها، ولكن كان تخمينا، وتحدثنا عن العقوبة التى سيقضى بها عليها .. أهى الإعدام أم الأشغال الشاقة المؤبدة .

وفى نفس اليوم .. بعد أن انتهيت من عرض الأوراق على رئيس النيابة وقيامى باعداد مذكرة لرفعها للنائب العام بظروف الحادث، إذا بعسكرى بوليس يطلب الإذن بالدخول. ولما دخل قدم إلى محضرا مرسلا من إحدى نيابات الوجه القبلى .

أخذت فى قراءة المحضر وكلما قلبت صفحاته أو تلوت الأسطر تملكنى عجب وخوف .. عجب مما أقرأ، وخوف مما كنا سنقدم عليه .. وهذا ما تضمنه المحضر :

«هاجم بعض الأشقياء المسلحين ماكينة رى وتبادلوا الأعيرة النارية مع الخفراء، وأصيب أحد اللصوص واسمه «جابر الأعرج» برصاصة فى صدره فسقط على الأرض وتمكن البوليس من الامساك به بعد أن تركه زملاؤه ولاذوا بالفرار .. وجابر هذا شاب هائل الجثة طويل القامة من الأشقياء المشهورين، وإن كان ميسور الحال يقتنى بضعة أفدنة لكنه هوى حياة رجال الليل وما فيها من مغامرات وأهوال ..

«ونقل جابر إلى المستشفى جريحا .. وقام الحكيمباشى بتفتيشه عند دخوله فلاحظ فى جيب صديريته وجود سلك من الذهب ينتهى باطار يضم صورتين لآنسة وشاب، فأثبت ذلك فى دفتر المستشفى واحتفظ بهذا السلك الذهبى كى يرسله إلى المركز. ولم يعر الأمر فى مبدئه إهتماما، وكانت عليه السهرة فى تلك الليلة .. وحوالى الساعة ٢ صباحا دعاه المريض الذى يشغل السرير المجاور لسرير جابر وطلب ليه أن ينصت لما يقوله جابر فى نومه .. وكان الأخير يهذى من أثر حمى الجرح .. يتحدث عن جريمة وقعت بمصر وذكرت تفاصيلها بالصحف، وهى خاصة بمقتل إحدى الممرضات واتهام زميلة لها بقتلها..

وأنصت الحكيمباشى فإذا بجابر يعترف فى هذيانه أنه خنق ابنة عمه زينب وأخذ صورتها وصورة خطيبها حتي يعرف شكله ليقتله أيضا، لأنه قد سمع بعلاقة الاثنين، ولم يدرك نيتهما على الزواج، ووصلت إليه شائعات دفعته إلى الانتقام لعرضه - وهو أقرب أقرباء زينب الأحياء - كتقاليد الصعيد القاسية.

وكان هذا المريض الذى دعا الحكيمباشى مدرسا بإحدى المدارس الإلزامية فلما سمع هذا الاعتراف الرهيب أخرج من أسفل الوسادة عدة صحف مختلفة فاضت بأنباء الحادث وبها عدة صور للقتيلة وخطيبها والمتهمة .. وسارع الحكيمباشى فأحضر السلك الذهبى وضاهى صورة القتيلة المنشورة بالصحف على الصورة الموجودة بالسلك فإذا بها لشخص واحد، وأسرع إلي التليفون فأبلغ المركز، فطير المركز الخبر إلى وكيل النيابة الذى دهش لغرابة ما سمع .. لكنه أسرع إلى المستشفى، وما كاد الفجر ينبلج حتى انبلج فجر الحقيقة أيضا.

لقد واجه المحقق جابر الأعرج بما فاه به فأنكر، ولما جابهه بالسلك الذهبى والصورة خارت أعصابه فاعترف .. اعترف أنه قتل ابنة عمه زينب لارتيابه فى سلوكها وتعيير الأشقياء زعماء العصابات الأخرى له بها.

وذكر أنه فى ليلة الحادث تسلل إلى غرفتها عن طريق النافذة التى كانت تتركها مفتوحة، ثم كتم أنفاسها حتى ماتت وانتزع السلك من عنقها واحتفظ به .. ثم علقها فى سلك الكهربا من عنقها حتى يظن أنها ماتت منتحرة .. وقال أن نفسه راودته أن يقتل زميلتها ان تحركت أو بدا أنها متيقظة، وأنه أنصت فلما لم يسمع غير انتظام أنفاسها عدل عن الاعتداء عليها .. وختم اعترافه بأنه اعترف لكى يريح ضميره إذ علم فيما بعد أن ابنة عمه راحت ضحية اشاعات السوء المغرضة التى أشاعتها عنها سميرة، وأنها كانت مخطوبة لذلك الشاب الموظف وأنهما كانا موشكين على الزواج..»

وهكذا أراد الله أن ينقذ عنق سميرة من حبل المشنقة .. وكانت منه قريبة..

امرأة شاردة

تأخذ ابريق الشاى وتمضى به نحو المطبخ .. «أمين» يظل مكانه لحظات مستغرقا فى تأملاته.. ثم ينتبه ويتلفت حوله.. وينهض ويدخل حجرته، ويعود حاملا فى يده خطابا أخضر اللون، يفتحه ويأخذ فى النظر فيه.. تعود «عفيفة» والأبريق فى يدها.. تتقدم نحو المنضدة ثم ترى الخطاب فى يد زوجها فتجمد مكانها وتقف واجمة .. تضع الأبريق فى رفق وهى تنظر إليه والى الخطاب الذي فى يده جيدا .. يرفع «أمين» وجهه نحوها ويبتسم فى هدوء ثم يقول :

أمين : هذا آخر خطاب وصلك منه .. فيما أظن.

عفيفة : (تظل واجمة .. ثم تقول) ممن ؟..

أمين : منه .. أقصد من عبد السلام رفاعى هذا .. ومَنْ غيره ..

عفيفة : أين وجدت هذا لخطاب ..؟ انه ليس لى ..

أمين : بل لك أيتها العجوز الطروب .. لك أنت بالذات .. وصل كالعادة على عنوان صديقتك فتحية .

عفيفة : وأين وجدته ؟..

أمين : حيث أجد كل خطاباتكم التى من هذا النوع .. فى القسم الأسفل من دولاب ملابسك.. القسم المقفل بالمفتاح أكان ينبغى أن أقول لك أننى صنعت له مفتاحا خاصا بى .. أعتذر إليك عن ذلك .. ولكنك ستفهمين بعد قليل .. خطاب لطيف .. أليس كذلك ؟.. أنه يجيد خطابات الغرام .. فى كلامه رقة تعجبنى.. ثم أن خطه جميل واضح .. ولكن ألا تلاحظين معى أن أسلوبه متكرر؟!

انه يقول نفس الكلام كل مرة .. ألا يضايقك ذلك ؟

عفيفة تتهالك على الكرسى .. ترفع شعرها بيدها، وتظل تنظر إلى زوجها

بعينين تفيضان بالحيرة والخوف .. ثم تبتسم ابتسامة غريبة باهتة .. أمين يشعل سيجارا آخر، ويتمطى فى كرسيه ويقول :

أمين : اننى أعرف كل شىء !

تقيم على صمتها .. ثم تقول وكأنها تحدث نفسها :

عفيفة : إذن .. فأنت تعرف ؟!

أمين : كل شىء .. منذ عشر سنوات !

عفيفة : (فى شىء من الدهشة) منذ عشر سنوات ؟ اننى ..

أمين : (مقاطعا) انك لم تعرفى « عبد السلام رفاعى» إلا من سنة وأربعة أشهر تقريبا .. أرت أن أقول أننى أعرف قصتك مع الذى كان قبله .. ذلك المحامى الثقيل الظل «حسان راجى».. والذي قبله أيضا «جلال أبو سلامة» ذى العينين الجميلتين .. ألم تصفيه بذلك فى أحد خطاباتك ؟ وأعرف كذلك حكايتك مع زوج أختك «عوض » .. !

يسكت لحظة ، وينظر إلى زوجته فى سرور ثم يقول :

أمين : أرجو ألا يكون فى ذلك مضايقة لك.

عفيفة : مضايقة ؟ ماذا تعنى ؟..

أمين : أعنى .. اطلاعى على خطاباتك..

عفيفة : اننى لا أفهمك ..

أمين : ستفهميننى بعد قليل .. أظن أن الشاى سيبرد فى الأبريق.. إملئى الفناجين ، واجلسى، تمالكى نفسك .. أنت امرأة قوية الأعصاب طول عمرك .. وقد ظللت تخفين عنى هذه المسائل الخطيرة عمرا طويلا دون أن يبدو عليك شىء .. ولابد أنك تعرضت فى حياتك لكثير من المواقف المحرجة .. ولابد كذلك أنك تخلصت منها بمهارة .. فلماذا ترتبكين الآن ..؟

عفيفة : اننى لا أدرى ما أقول ..

أمين : (ضاحكا) معذرة .. لقد خنتك كثيرا ..

عفيفة : أنت ؟..

أمين : نعم .. باطلاعى على أسرارك دون علمك ..!

عفيفة : اننى لا أصدق عينى أو أذنى .. لا أصدق أن زوجى هو الجالس أمامى الآن، وأنه هو الذى يقول هذا الكلام ..أمين : بل صدقى ! أنا أيضا لم أصدق عينى حينما رأيتك تنحرفين هذا الانحراف المحزن منذ عشر سنوات ..

عفيفة : ولكنك لم تفعل شيئا.

أمين : بل فعلت .. ستعرفين ذلك كله بعد قليل.

عفيفة : ولكنك لم تسألنى فى شىء .. ولم تحدثنى فى شى .. لو عرفت ظروفى لعذرتنى .. أننى مستعدة لأن أحكى لك كل شىء .

أمين : هيا .. كلى آذان ..

عفيفة : كانت ظروفنا سيئة جدا سنة ١٩٣٨.. أنت تعرف كيف ساءت أحوال تجارتك واحتجت إلى قرض كبير .. كنت أنا فى ذلك الحين شديدة القلق على مستقبلنا.. وارادت المصادفة أن أتعرف إلى حسنى درويش فى مكتبك بالمحل ..

أمين : (مبتسما) حسنى درويش ؟ انك لا تذكرين أقاصيصك جيدا .. ذاكرتك ضعيفة .. أظن أن الأفضل أن أحكى أنا..

عفيفة : أؤكد لك أننى بريئة ..

أمين : إن براءتك أو جنايتك لا تهمنى فى شىء !

عفيفة : لا تهمك ؟..

أمين : أبدا .. وستعرفين لماذا ؟ هيا تكلمى..

عفيفة : أحب أن أقول أولا أنك المسئول عن كثير.

أمين : دعى المسئولية جانبا .. إنها لا تهم .

عفيفة : لا شىء يهمك ! يبدو أنك نويت أمرا..

أمين : وفعلته ! أمر لم يضرك ولن يضرك .. ! والآن .. هل أستطيع أن أحكى .. أرجو أن تصححى لى أخطائى فى الوقائع عند اللزوم.

ينهض ، ويصب الشاى فى فنجان «عفيفة» ويقدمه لها .. ويصب لنفسه فنجانا.. ثم يجلس ويقول :

– كان ذلك منذ عشر سنوات وأربعة أشهر كما قلت لك .. كنا إذ ذاك نسكن فى شبابنا، فى شارع «قبة الهوا» لو كنت تذكرين .. وكنت أعرف أنك امرأة ضعيفة الإرادة، خفيفة ، كما يقولون .. وقد قضيت الأعوام الخمسة عشر السابقة لقدومنا إلى القاهرة وكل جهدى منصرف إلى المحافظة عليك .. أنت امرأة جميلة وفاتنة .. والجميلات عندنا قليلات، فكنت أعذرك حينما الاحظ افتتانك بنفسك ورغبتك فى أن يعجب بك الرجال ولكننا كنا فى «منوف» وهى بلد ضيق صغير لا تستطيع امرأة أن تسىء السيرة فيه، لقلة الفرصة، ولقلة الرجال الذين يصلحون للمغامرات .. لهذا كانت الرقابة عليك أمرا سهلا.. وأنت تذكرين بالطبع كيف أنقذتك من الاتصال بضابط المباحث هناك .

عفيفة : وتعرف هذا أيضا ..أمين : طبعا .. كل شىء !.. ثم نقلنا محلنا إلى القاهرة بنصيحة أمك .. لقد أعطتنا الدكان بايجار أسمى فأغرانا ذلك بالمجىء إلى القاهرة ..وليتنا ما جئنا..

عفيفة : نعم .. ليتنا ما جئنا!

أمين : ولكننا كنا مضطرين .. كان ولدانا قد دخلا المدارس الثانوية ..

وكان لابد لنا من الانتقال إلي بلد فيه مدرسة لهما .. أليس كذلك.. لو لم يكن هناك الولدان ، إذن لعدنا إلى منوف بعد شهرين فقط.

يبدو الألم على وجهه.. ويمضى يقول وكأنه يحدث نفسه :

أمين: أجل، كان ينبغى أن نعود من حيث أتينا.. ولكننى لم أكن أستطيع.. كان «اسماعيل» و«مختار» قد دخلا المدرسة التوفيقية، ولم يكن من الممكن أن نتركهما فى القاهرة وحيدين .. وهنا بدأت مغامراتك أيتها المسكينة التعيسة، وتبينت بعد مشاجرات كثيرة معك أن اصلاحك مستحيل.. أنت من هذا النوع من النساء اللاتى يعجبهن كل الرجال الا أزواجهن.. وهذا مرض.. مرض نفسى.. صدقينى.. لقد عذرتك فيما بعد، فهناك ناس لا يعجبهم طعام البيت أبدا.. انهم لا يشعرون بالجوع إلا إذا خرجوا من بيوتهم.. وأنت من هذا النوع..

يتناول جرعة من الشاى، ويقول :

أمين : كان حسنى يسكن الشقة المقابلة لنا فى هذا البيت المشئوم فى «قبة الهواء».. ولاحظت أنك تكثرين من الالتفات إلى نافذته، وكان هو فى الواقع شابا طيبا كثير العيال.. كانت مصيبته زوجته، فقد كانت دميمة، طويلة اللسان.. تذكرين يوم رأتك تقذفين إليه بورقة..

عفيفة : ذلك شىء قديم .. !

أمين : نعم .. ولكننى لن أنساه، لأنه كان أول الانحدار، لقد لطمتك إذ ذاك على وجهك للمرة الأولى .

عفيفة : والأخيرة !

أمين : نعم .. فقد تبينت أن لا فائدة .. ان هذا الانحراف منك جنون .. وهل هناك أمل فى تقويم مجنون ؟!

عفيفة : لكنك عشت معى بعد ذلك ..

أمين : مرغما.. بسبب الأولاد ! كنت بين أحد أمرين : أما أن أنفصل عنك فلا يجد أولادى من يعنى بهم، أو ..

عفيفة : كنت تستطيع الزواج من أخرى ..

أمين : نعم ، كان ذلك ممكنا، ولكن حبك لأولادك كان عجيبا. وعنايتك بهم كانت أعجب .. أقول لك الحق اننى لم أر فى حياتى امرأة تحب أولادها مثلك أو ترعاهم بمثل رعايتك .. صدقينى انك لغز غريب .. معقد ! كيف يمكن أن يجتمع فى إنسان واحد ذلك الإخلاص الغريب نحو الأولاد.. وذلك الإهمال المزرى للزوج؟! عفيفة : لم أكن أهملك ..

أمين : صحيح .. هذا صحيح .. لم تهملى واجبا واحدا من واجباتك المنزلية .. ولكنك استهنت استهانة غريبة بكرامتى ..!

عفيفة : لا أدرى ماذا كان دهانى!أمين : ألم أقل لك أنك مريضة .. مريضة مرضا نفسيا لا شفاء منه ؟ أريد أن أقول أننى بعد تفكير طويل غلب على حبى لأولادى .. فلم أجرؤ على تطليقك..

عفيفة : ولم تقل لى شيئا؟

أمين : وماذا أقول لمريض مجنون ؟.. لم يكن هناك معني للكلام .. كنت بين أحد أمرين : أما أن أطلقك وأخلص منك جملة، أو ادع الأمور تجرى مجراها وأحاول ترتيبها بطريقة أخرى.

عفيفة : ترتيبها ؟..

أمين : نعم .. تلك هى المسألة كان موقفى عسيرا جدا .. ولا أخفى عنك أننى رغم أخطائك التى توالت بعد ذلك، كنت أحبك وارتاح إليك وإلى نظامك وذوقك .. لم يتحير رجل كما تحيرت أنا إذ ذاك .. كنت أري المحافظة على بيتى

وأولادى .. وكانت مصيبتى من ربة بيتى وأم أولادى ..! فكرت فى الموضوع طويلا، ثم تبينت أخيرا .. أن سبب البلاء كله هو عقد الزواج الذى يربطنى بك.. لو لم تكونى زوجتى لكنت أسعد الناس بالعيش إلى جانبك، لأنك امرأة جميلة ، ذكية، مبرة .. ولأننى رغم ذلك كله كنت أعشقك .. أيتها القطة الناكرة للجميل!

« وأخيرا .. اهتديت إلى الحل ! ذهبت إلى المأذون وطلقتك !»

عفيفة : (فى دهشة) أنت ؟!

أمين : نعم .. وهذه هى وثيقة الطلاق .. تاريخها ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٩ .

عفيفة : ولكننى لم أتسلمها .

أمين : وما أهمية ذلك ؟ كثير جدا من الناس يذهبون إلى المأذون ويطلقون زوجاتهم على يد شهود.. ودون أن تعلم الزوجة، وعلى المأذون بعد ذلك أن يخطرها رسميا .. وتنقضى عادة أيام قبل أن تتسلم الزوجة الاخطار وتعرف أنها مطلقة .. فى هذه الأيام يكون الرجل قد تحرر نهائيا من رباط الزواج، فلا يعود شرفه متصلا بشرف زوجته، فى حين تظل المرأة تظن أنها زوجة..

عفيفة : هذا ممكن، لبضعة أيام فقط.

أمين : ولسنوات أيضا .. اليس من الممكن أن تضيع القسيمة فى البريد؟! أليس من الممكن أن ينسى المأذون أن يقوم بهذا الاخطار ؟..

عفيفة : ولكن العادة أن يقوم الزوج بهذا الاخطار ..

أمين : لماذا ؟..

عفيفة : لكى تعلم الزوجة بحقيقة موقفها، وتبرح البيت .

أمين : هذا ما كنت أرى أن اتفاداه.

عفيفة : آه .. فهمت !

أمين : طبعا .. أنت امرأة ذكية .. ولابد أن تفهمى..

عفيفة : أى أنك لم تعد زوجى من ذلك التاريخ.

أمين : بالضبط .. تنازلت عن نصيبى فيك كزوج.. لعلك لاحظت أننى لم أعاملك معاملة الأزواج من زمن بعيد جدا..

عفيفة : طالما حيرنى ذلك.

أمين : والآن بطلت الحيرة !

عفيفة : ذلك شىء غريب..

أمين : جدا .. انه علاج غريب لمرض غريب وموقف أغرب! كيف كان من الممكن أن احتفظ بنصفك واتخلى عن نصفك الآخر إلا بهذه الطريقة ؟!

عفيفة : لهذا لم تعد أمورى تهمك ؟..

أمين : أجل .. أصبحت مجرد ساكن معك فى بيت واحد !.. ومن ذلك التاريخ هان على كل شىء ! أصبحت علاقاتك لا تهمنى، لأنك لم تعودى زوجتى.. واطمأننت على مصير أولادى، وكان هذا هو أعز أمانى !.. ثم أننى لم أكن راغبا فى الزواج مرة أخرى، ولهذا استطعت أن أعيش معكم فى سلام.. والآن، هل أرجوك فى شىء !..

عفيفة : ما تريد !

أمين : أن تتسلمى ورقتك .. وأن تعتبرى أنك تسلمتها فى تاريخها.

الزوجة تتناول «القسيمة» فتتأملها لحظة، ثم تقول :

عفيفة : يا إلهى ! إذن .. فأنا لست زوجتك !

أمين : لم تكونى أبدا .. لا قبل الورقة ، ولا بعدها.. أنت امرأة شاردة، مسكينة ..!

عفيفة : لكن .. كيف أعيش معك الآن ؟..

أمين : كما عشت أنا معك هذا العمر كله !..

عفيفة : أظن أننا لا يمكن أن نعيش معا بعد الآن!

أمين : كما يعجبك .. الأمر عندى سيان الآن .. كانت كل أمنيتى هى اعداد أولادى للحياة .. وقد حققت هذا الأمل ولم يعد يهمنى شىء .. لماذا لا نعيش معا فى حدود الوقار.. زوجان أمام الناس، صديقان بعيدا عن الناس .. لو أننى انفصلت عنك الآن لذهبت لأعيش فى أحد البنسيونات .. وهذا البيت بيتك وأثاث البيت ملكك بنص القانون .. فلماذا لا تكونين أنت صاحبة البنسيون.. أنت أولى !.. ثم أننى أحبك .. وأظن أنك لا تكرهيننى.

فسكتت لحظات ثم قالت :

عفيفة : أكرهك ! كيف أكرهك ؟! لو لم أحبك فى يوم من الأيام لأحببتك الساعة !.. لقد احتقرتك كثيرا طوال هذه السنوات .. وحسبتك رجلا مغفلا أو رجلا يتغاضى ! ولكنك أعظم رجل فى الدنيا فى نظرى الآن .. لا تتصور كم احتق نفسى !

أمين : لماذا ؟.. قلت لك أنك امرأة مريضة !

فابتسمت وقالت :

عفيفة : مريضة ؟! أجل .. مريضة حقا .. ولكنك شفيتنى .

أمين : يا عزيزتى .. وهل هذا ممكن ؟!عفيفة : أجل .. ممكن .. لقد صدمتنى الآن صدمة أعادتنى إلى رشدى !

أمين : أيتها العجوز الشاردة .

عفيفة : لم أعد شاردة .. أننى مسكينة .. هل أستطيع أن أسألك شيئا ؟. لقد أخذت على نفسك تضحيات كثيرة .. فهل تتفضل بتضحية جديدة ؟

أمين : أنا أفهم ما تريدين .. ولكننى أظن أنك لن تستطيعى .

عفيفة : ألا تريد أن تفتح لى باب الرحمة ؟. اننى أفكر الآن فى شىء واحد.. هو أن انتحر، لكى أكفر عن خطاياى .. فهل تنقذنى كما أنقذت أولادى؟! أرجوك..

فسكت لحظة .. ثم أشعل سجارة أخرى .. وقال :

أمين : تريدى أن أتزوجك من جديد ..؟

عفيفة : أردت .. لقد سئمت كل شىء .. وأريد أن أعيش معك الآن لا لكى أستريح .. بل لكى أكفر عن خطاياى .. لقد طلقتنى عشر سنوات .. فلماذا لا تقبلنى الآن كامرأة جديدة .

أمين : تريدين أن تسخرى منى مرة أخرى ..

عفيفة : أمين .. أرجوك .. أرجوك .. أما أن تقبلنى أو أقتل نفسى ..

أمين : هذا جنون ! .. الآن وقد خلا الطريق أمامك .. وذهب أولادك .. تريدين أن تدخلى المحراب ؟..

عفيفة : نعم ، بين يديك .. لخاطر أولادنا.. تصور ماذا يحدث لهم لو انتحرت ! اعطنى فرصة .. تستطيع أن تطردنى إذا أخطأت .. أرجوك ..فسكت الرجل لحظات طويلة ، ثم وقف، وتقدم من عفيفة ومد يده إليها ثم قال :أمين : عفيفة .. ليكن .. الحياة تجارب .. من غد نذهب إلى المأذون، لنتزوج، لنبدأ الحياة من جديد .. وأى حياة .. أن التعب باد على وجهك ياعزيزتى قومى فاستريحى فى حجرتك.. هيا ..

وتناولت يده بين يديها .. ومضت تقبلها .. وانحدرت دموعها .. للمرة الأولى فى حياتها !..

اللعب بالنار ... (١)

«الخواجة يوسف» رجل فى نحو الستين من عمره، يشتغل صائغا وتاجرا يبيع التحف والآثار والحلى، ويحوى دكانه الذى يقع فى الطابق الأرضى من منزله خليطا عجيبا من هذا كله .. ويقيم يوسف مع أخته وابنته الوحيدة المخطوبة إلى طبيب يعمل على إحدى البواخر .. ونراه فى مكتبه الخاص الملحق بدكانه يسىء معاملة صبيه «مدحت» الذى يعاونه فى عمله بالدكان، ويلاحقه بالزجر والاضطهاد، ومدحت يتخاذل أمامه ويروض نفسه على الذل والهوان !

ويستقبل الخواجه يوسف خطيب ابنته العائد من رحلة إلى الهند، وتلمح تعلق يوسف بابنته وحبه لها وحرصه على سعادتها، انه قوى جبار إلا أمام ابنته! وينصرف الجميع لقضاء سهرة فى الخارج، ويبقى يوسف وحده فى مكتبه، فيأمر صبيه «مدحت» بغلق الدكان والانصراف.

ويدق باب المسكن الخارجى ويدخل، بهجت ، فيخلو بالخواجة يوسف ، ويكون بينهما حديث تتكشف به حقيقة يوسف فنعلم أنه نزح إلي مصر من زمن بعيد هربا من حكم صدر عليه بالأشغال الشاقة لاتهامه بالاشتراك فى جريمة بتركيا، وأنه يشترى الذهب المسروق بثمن بخس وقد جمع من ذلك ثروة كبيرة وقد حضر ليعرض عليه شراء مصوغات مسروقة، فيساومه بأسلوب التاجر الخبير العارف بأخلاق الرجال وأهواء النفوس.

وينصرف بهجت . فيتجه يوسف إلى مدفأة بالغرفة ويحركها فتدور فإذا خلفها فرن تتأجج ناره وقد أعدها لصهر ما يريد إليه من مصاغ مسروق.. وفجأة يظهر مدحت .. ! انه لم يكن قد انصرف، بل تظاهر بالانصراف وتسلل إلى مكتب الخواجة يوسف واختبأ خلف تمثال قديم، حيث سمع وشهد كل ما دار، واطلع على ما يخفى مخدومه من أسرار!

---

(١) المصور ١٩ نوفمبر ١٩٤٨م .

ويشعر يوسف بحركة فى الغرفة فيلتفت ليرى مدحت قد التقط مسدسه من مكتبه وصوبه إليه مهددا متوعدا .. وتنزل الستار.

ثم رأينا يوسف وكأنما قد كبر عشرة أعوام. ان مدحت وقد اطلع على سره جعله تحت رحمته وأخذ يبتز منه المال حتى زاد ما أخذه منه فى شهور قليلة على ستة آلاف من الجنيهات! ويحضر مدحت لمقابلة الخواجة يوسف فيجد فى مكتبه ابنته وخطيبها وصديقة لها. وترى العامل الذليل قد انقلب إلى فتى متأنق، يحاول فى جرأة أن يغازل ابنة سيده السابق، فتحدث مشادة بينه وبين خطيبها الذي يطرده من البيت. ويدخل يوسف، ثم يخلو بأخته فتجده يقاسى عذابا أليما. فهذا الفتى مدحت يعتصره بقسوة ويقلبه على نار هادئة، وهو مضطر إلى الخضوع، لا خوفا من العقاب فحسب، ولكن لأنه يخشى قبل كل شيء أن تعلم ابنته بحقيقة أمره ، فتفجع فى أبيها الذى نشأت على احترامه وحبه.

ويعود مدحت فيجد يوسف وحده بعد أن خرج الباقون للسهرة، ويطلب منه نقودا، ويحاوره يوسف ويرجوه أن يجد حلا يريحه من هذا العذاب المتصل، فيقترح عليه مدحت أن يزوجه ابنته فيصبح فردا من عائلته وشريكا له فى أعماله!

ويثور يوسف على الفتى الذى جاوز كل حد معقول، ولكن مدحت كان حريصا، فهو لا يتحدث الا ومسدسه فى يده، فيقوم يوسف ويحضر له النقود وقبل أن يتناولها مدحت يتظاهر يوسف بأنه أصيب بنوبة قلبية فيخف مدحت لاسعافه وهنا يتمكن يوسف من الوثوب عليه والاطباق على عنقه فلا يتركه إلا جثة هامدة.

وهذا هو يوسف يبدو مشرق النفس بعد أن أزاح عن كاهله العبء الذى كان يبهظه، فقد استطاع أن ينقل الجثة بمعاونة بهجت حيث ألقى بها فى طريق

الهرم ولم يعد هناك ما يخشاه، ويحضر إلى مكتبه أحد ضباط المباحث لسؤاله عن معلوماته فى حادث مقتل موظفه السابق، فيفلح فى إبعاد كل شبهة عنه . وينصرف الضابط، ولكن خطيب ابنته يشك فى بعض أقواله وتصرفاته، ثم يعرف الحقيقة كلها ويكتشف سر المدفأة، ويواجه يوسف بهذا كله، فيطلب إليه يوسف أن يخفى الأمر عن ابنته ولا يحملها أوزار أبيها، فيعده الطبيب بذلك ويؤكد له أن ماعرفه لا يؤثر فى حبه لابنته وتمسكه بها.

ويطمئن يوسف وقد ظن أن متاعبه قد انتهت ولكن ضابط المباحث يعود بشكل يعتقد معه يوسف أن السلطات قد وضعت يدها على دليل يثبت ادانته وأن الضابط عائد للقبض عليه. فيمسك بابرة مسمومة كان صهره قد أحضرها معه من الهند ويطعن يده بها. وبينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة يعلم من الضابط أنه إنما عاد لكى يشترى منه صورة كان قد أعجب بها فى دكانه.

ويسقط يوسف، ويسلم الروح، بعد أن تدخل القدر وجعل منه جلادا لنفسه، يوقع عليها ما تستحقه من عقاب.

التسعة السباتى . !

كان أغرب حلقة مفقودة فى الحادث، هو المصدر الذى جاءت منه الجثة، كانت حركة المرور فى طريق «ديرولى» بباريس كثيفة فى عصر ذلك اليوم من أيام شهر يوليو. وانبثق الضوء الأحمر فى إحدى دوراته يوقف العجلات المتدفقة من أحد الطرفين، وفى اللحظة التى عاد فيها الضوء الأزرق، اندفعت العجلات إلى الأمام .. وفى غمرة الضجيج، سمع صوت «فرامل» استخدمت فى عنف .. فقد وجد سائق إحدى سيارات «التاكسى» جثة فى طريقه !..

وفى دقائق كان رجال البوليس قد خفوا إلى المكان .. وركع الدكتور موبير – طبيب البوليس – يفحص الجثة، ثم رفع رأسه قائلا للمفتش روسو والمخبر لوفالوا:

– أنها جريمة بلا شك، فقد نشأت الوفاة عند اختراق هذه لقلبه.

وانتزع من صدر الميت إبرة رفيعة، طويلة .. واستطرد قائلا :

– يبدو أن القاتل غرسها فى قلب الضحية بقوة مكنتها من اختراق الثياب .. ترى بأى سلاح غرست ؟..

وكانت الظاهرة التي حيرت رجال البوليس هى أن الدم كان لا يزال ينزف من الجثة، دلالة على أن صاحبها لم يقتل إلا منذ دقائق معدودات، فكيف تسنى مع ذلك، طرحها على أرض الشارع المزدحم، دون أن يفطن أحد؟ .. بل أن سائق سيارة «التاكسى» أقسم أنها لم تكن موجودة قبل أن يفطن ليها بلحظة واحدة!..

وفجأة، التقط المخبر لوفالوا ورقة كانت مثبتة بدبوس فى الجثة .. ورقة من ورق اللعب .. «التسعة السباتى»، وقد حولت ثلاث من نقاطها إلى ثلاث جماجم حول كل منها عظمتان متقاطعتان .. وعلى ظهرها كتب .. « رقم ٣» .

وقال المفتش : هذه تدعم الظن بأن الحادث جريمة مدبرة .. كما أنها تنفى أن الجثة ألقيت من سيارة، وإلا لانفصلت هذه الورقة أو تمزقت حسب وضعها.

وانطلق أعوان المفتش يعملون فى نشاط النحل الدائب، فلم تمض ساعات، حتى كان قد تلقى تقارير مسهبة منهم، جمعها وحملها إلى مكتب رئيس المباحث «هيبير» ، ودعا رجاله إلى اللحاق به.

واستعرض الرئيس التقارير فى ترو وامعان، ثم قال :

- إذن ، فالقتيل هو الأستاذ فولاند، الذى اشتهر فى أوساط الأشرار والمجرمين، بأنه ما تولى قضية من قضاياهم إلا وأنقذ صاحبها من العقاب!.. وقد دلت تحرياتنا على أن البريد حمل إليه من أيام، ورقة من أوراق اللعب شبيهة بتلك التى وجدت على جثته. كما أنه تسلم صورة له، التقطت على ما يظهر فى غفلة منه.. وقد ثقب فوق موضع القلب بدبوس ..

وهذه كلها قرائن توحى بأن القتل تم لغرض الانتقام، ولكن .. ثبت أن فولاند سحب من مصرفه بالأمس، خمسين ألف فرنك، لم يوجد منها فرنك واحد معه عندما اكتشفت جثته، وقد أخفقت تحرياتنا فى الوصول إلى النقود، أو إلى معرفة أوجه انفاقها ..

وقد يدل هذا على أن السرقة كانت الحافز على القتل، ولكن .. بماذا نفسر ورقة اللعب والصورة اللتين تلقيناهما قبل مقتله بأيام .. كيف تسنى للقاتل أن يعرف أنه سيسحب النقود بالأمس؟ ثم لماذا ثبت القاتل ورقة أخرى من ورقات «التسعة السباتى» على الجثة؟..

فقال لوفالوا :

- يحسن بنا أن نتتبع تاريخ حياته من البداية، فقد نعثر على ما يلقى ضوءا على هذا الغموض.

وانقضى أسبوع دون أن يعثر رجال المباحث على جديد.. ثم عثر على قتيل آخر فى محطة «كليشى»، إحدى محطات باريس الفرعية .. وكانت ظروف الحادث تشبه ظروف سابقة .. فالقتل حدث اثر نفاذ إبرة طويلة إلى القلب .. والجثة ظهرت فجأة حيث لم تكن من قبل، دون أن يدرى أحد من أين جاءت .. ووجدت عليها ورقة «التسعة السباتى» وقد حولت أربع من نقاطها إلى أشكال جماجم تحيط بكل منها عظمتان متقاطعتان.. وخلفها كتب «رقم ٤».

وتبين أن القتيل من عمال السكة الحديدية، ويدعى «روبير جوبار» ، وأنه تلقى قبل مصرعه بأيام صورة له ثقبت فوق موضع القلب منها، ورسم على ظهرها جمجمة وعظمتان متقاطعتان، كتب تحتها .. «رقم ٤»!.وقال رئيس المباحث فى حيرة : إن الأمر يبدو كسلسلة من الانتقامات لولا الفرق الشاسع فى المكانة الاجتماعية بين الضحيتين فى الحادثين ..

فقال لوفالوا :

– ولكن كل منهما فى حوالى الخمسين من العمر.

فصاح الرئيس :

– هذا صحيح .. وإذا كان الاغتيال بباعث من الرغبة فى الانتقام، فلابد أن لذلك علاقة بشبابهما..

وهنا قال المفتش روسو :

– والقتل مصحوب بسرقة فى هذه المرة أيضا.. إذ ربح المسكين فى هذا الصباح خمسة آلاف فرنك، من « يانصيب السباق»، ورؤى منذ أقل من ساعة، فى سيارة «تاكسى» وقد أطل من نافذتها يصيح ويهلل فرحا.. وفجأة، وجد ملقى فى المحطة قتيلا، وليس من درهم معه، وليس حوله أحد !..

قال الرئيس :

- لولا الصورتان وورقتا اللعب التى أرسلت إلى كل من الضحيتين قبل اغتياله بأيام ، لسلمنا بأن السرقة كانت الحافز للقتل.. ثم ، كيف تسنى للقاتل أن يعرف أن فولاند كان سيسحب نقودا قبل مصرعه بيوم ، وأن جوبار كان سيكسب اليانصيب صبيحة يوم اغتياله ؟.. ثم إن طريقة انغراس كل من الابرتين اللتين استخدمتا فى القتل، تدعم ما قلته من أنها أطلقتا من آلة قوية، كالبنادق التى تنطلق بضغط الهواء .. ولكن الرقمين اللذين عينهما القاتل لضحيته، يوحيان بأن فريستين قد سبقتاهما !

واستأنف رجال البوليس أبحاثهم يحاولون كشف غوامض الجريمتين.

وبعيد الساعة السادسة من صباح يوم الأحد التالى ، تلقي رئيس المباحث رسالة تليفونية من حارس سجن «لويس» بأن قتيلا وجد خارج باب السجن.

وكانت الجريمة الجديدة شبيهة بسابقتها، لا تختلف إلا فى أن النقاط التى حولت إلى أشكال جماجم وعظم، من «التسعة السباتى»، كانت خمسا.. وأن العبارة التى كتب على ظهر الورقة كانت «رقم ٥»!.

وتبين أن القتيل - «بيير ديلاجرانج» - كان سجينا قضى مدة سجنه فلم يشأ أن يبقى فى السجن، بل أصر على أن يغادره فى الساعة الخامسة من ذلك الصباح. وقد رآه الحارس الذى كان موكلا بالباب يستوقف سيارة «تاكسى» مرت عند خروجه ويستقلها.. وبعد ساعة، فتح الباب فإذا جثة ديلاجرانج ملقاة أمامه.وهتف رئيس المباحث :

- لابد أن القاتل كان يراقب ضحاياه بدقة ثم أن دلاجرانج فى حوالى الخمسين من عمره، فالسن هى الرابطة الوحيدة بين الضحايا، رغم تفاوت مراكزهم الاجتماعية.. اننى اليوم أكثر يقينا بأن الحافز الأول هو الانتقام !

وفى اليوم التالى دعا المسيو هيبير أعوانه، وقال لهم :

– أستطيع الآن أن أقول أن جهودكم بدأت تؤتى ثمارها.. ومع أننى قد توصلت إلى معرفة اسم القاتل، إلا أننى أنذركم بأن أمامنا عملا شاقا، جبارا، فى سبيل اعتقاله ..

«لقد اقتنعت من الانذارات التى تلقاها الضحايا قبل اغتيالهم بأيام. ومن ظهور «التسعة السباتى» فى كل مرة، بأن القتل كان بدافع من الرغبة فى الانتقام .. ولا تنسوا أن نقطة «السباتى» تتخذ رمزا للثأر عن أهل كورسيكا.. أما «التسعة» فترمز إلى عدد الضحايا المنشودين .. وتدل القرائن على أن القاتل قد أجهز على ضحيته «رقم ١» و «رقم ٢» فى غير باريس .. وكان اختلاف مراكز الضحايا الثلاثة الذين عرفناهم، كفيلا بأن يقضى على فكرة «الانتقام»، لولا أنهم كانوا يتشابهون فى العمر، وقد أوحى ذلك بأن البحث فى ماضيهم قد يكشف عن دليل يرشد إلى الحقيقة.. وقد ساءلت نفسى، ما الذى يجمع فى الشباب بين ثلاثة أشخاص تختلف مراكزهم الاجتماعية هذا الاختلاف الشاسع، فيضطرهم إلى أن يكونوا معا، على قدم المساواة.. ووجدت أن «الجيش» هو الجامع الوحيد المعقول !..

ومع هذا الضوء وجدت أن فولاند كان فى شبابه ضابطا فى الجيش.. وعلى هدى المعلومات التى طلبتها .. كان فى حامية «سيدى أبي العباس» فى شمال أفريقيا. وكان بين رجال «أورطته» رجل يدعى جان بيجو، تحطمت حياته بدسيسة أنانية شيطانية، دبرها فولاند وثمانية من زملائه.. فلقد حدث أثناء خدمة بيجو فى أفريقيا، أن أحب فتاة من بنات الصحراء وتزوجها رغم أن قوانين الجيش تحرم ذلك.. وقدر لفولاند أن يراها فهام بها، ومن ثم دبر مؤامرة للتخلص من بيجو، فاتهمه باغتيال شيخ عربى.. ولم تكن ثمة قرينة تؤيد الاتهام فى الواقع . لولا أن فولاند أغرى ثمانية من رجال طابوره، فأدوا شهادة كاذبة

ضد بيجو. ومن ثم حكم على الرجل بالسجن عشر سنوات، وأنتم تدرون تماما قسوة السجن العسكرى فى الصحراء.. على أن بيجو ما لبث أن وفق إلى الفرار بمساعدة بعض المتحمسين له من زملائه.. وسحب زوجته فاختبأ فى طلل مهدم مهجور.

«وكان من الطبيعى أن يدور البحث عنه فى همة ودقة .. وتصادف أن بلغ ثنان ممن شهدوا زورا ضد بيجو، الطلل الخرب، فقاومهما الرجل فى نضال عنيف فقد خلاله أصبعين من أصابع يده اليمنى، وابهام اليد اليسرى، ولكنه استطاع أن يهزم الرجلين، وأن يحكم وثاقهما .. ثم دبر لهما انتقاما مروعا .. إذ جمع وزوجته عددا من العقارب السوداء الفتاكة، وأطلقها على أسيريه .. ثم عادوا الفرار، فلجأ إلى إحدى قبائل الطوارق، وأعلن إسلامه وانضم إليها.

ولم يعد للجيش حيلة لاسترداده وإلا أثار نقمة القبيلة وعداءها، ومن ثم ترك وشأنه، يعيش فى مضارب القبيلة فى سلام .. إلى أن ماتت زوجته منذ شهور، فغادر البادية. كما دلت تحريات قلم المخابرات السرية للجيش.. ومن الجلى أنه حل بباريس، مطمئنا إلى أن السنين قد غيرت من شكله..

فبدأ يبحث عن أولئك الذين حطموا حياته بشهادتهم الزائفة. كى ينتقم لنفسه .. وقد قتل ثلاثة منهم.. وبقى فى باريس واحد، دلت الأبحاث عن أنه يدعى «هنرى لافال»، وأنه يدير متجرا صغيرا .. وقد وجدنا أنه تلقى بالبريد ورقة «التسعة السباتى» وقد حولت ست من نقاطها إلى جماجم وعظم، كما تلقى صورة له، ثقب ما فوق موضع القلب منها.

«بقى أن نقتص بيجو.. لقد رؤى كل من عامل السكة الحديد والسجين الذى أطلق سراحه – يستقل سيارة «تاكس» قبل مصرعه .. وتدل الظروف على أن الضحايا الثلاث السابقة، قد أسقطت فى عرض الطريق من سيارته، وإن لم نعثر على أدلة مادية تدعم ذلك، أو تكشف عن الطريقة التى اتبعت.. على أن

بيجو كان ميكانيكا ماهرا فى صباه، ومن المحتمل أن يكون قد لجأ فى البحث عن غرمائه إلى قيادة إحدى سيارات «التاكسى» واعتقد أنه استخدم مهارته الميكانيكية فى ابتداع طريقة شيطانية للقضاء على ضحاياه داخل السيارة. ولا أشك في أنه اخترع بندقية خاصة لاطلاق تلك الابرة القاتلة. ولكن لابد لنا من جرىء مقدام يتطوع لتعريض حياته للخطر، في سبيل اكتشاف ذلك!

وكان لوفالوا هو ذلك الجرى المقدام .. كان عليه أن يقصد متجر لافال، فيتخفى فى ثيابه، بعد أن يجيد تقلى ملامحه ما استطاع، ثم يغادر المتجر عند الغروب فيتظاهر بالبحث عن سيارة.. وإذا صحت نظرية رئيس المباحث، فإنه لن يلبث أن يرى سيارة «تاكسى» تقترب منه، فعليه أن يستقلها.. وما أن يتثبت من أن سائقها هو «بيجو» حتى يصدر من النافذة الخلفية إشارة لزملائه الذين سيتبعونه فى سياراتهم عن كثب !.وقال رئيس المباحث فى النهاية :

– على أننى أوصيك بأى ترتدى صديريك الفولاذى تحت ثيابك .. واذكر أن بيجو عاش طويلا فى الصحراء، فهو ولابد أسمر، مفتول العضلات .. وقد تكون عيناه باهتتين كليلتين لطول تعرضهما لوهج الشمس .. ولعله ترك لحيته لتخفي معالم وجهه.. ولا تنس الأصابع المبتورة.

واتبع لوفالوا التعليمات بدقة تامة .. ودلف إلى متجر لافال يتم ما تبقي من تنكره، بينما كان صاحب المتجر يرقب الطريق من نافذة خلفية وأخيرا قال لافال :

– هاهى ذى السيارة.. ما أكثر ما حامت حول المتجر فى المدة الأخيرة .. انه كالسر يتربص بفريسته!

واذ استوثق لوفالوا من مسدسه، خرج إلى عرض الطريق .. وكانت ثمة سيارة قادمة من أحد الشوارع الجانبية، فما أن رآه سائقها حتى اتجه نحوه،

وإذ ذاك رفع يده يستوقفه.. وكان أول ما لاحظه وهو يستقل السيارة أن لون عيني سائقها، باهت، شاع فيه لهيب متقد من التحفز والإجرام.

وأمر السائق بأن يتجه إلى غابة بولونى، ثم تحول يدرس السيارة وسائقها.. كانت يداه داخل قفازين من الجلد، لم يحولا دون أن يستوثق من أصابعهما المبتورة .. وخفق قلب لوفالوا إذ لاحظ نظرات السائق تنعكس فى المرآة التى أمامه، فإذا هى تفيض بشرر قاتل رهيب .. للمرة الأولى، فطن المخبر إلى أن الأجزاء الظاهرة من عدد القيادة ومفاتيحها، غير عادية .. كان يتوسط عجلة القيادة قرص زجاجى ذو دوائر وعلامات كتلك التى تجهز بها المدافع لإحكام الرؤية والتصويب ..

وكانت ثمة مفاتيح فى متناول يد السائق، لا تمت للقيادة بصلة .. وفجأة لاحظ لوفالوا أن السائق مس أحد هذه المفاتيح، فإذا البوق الذي يحمل تعليمات الراكب للسائق عادة، يتحرك فى هدوء، حتى تواجه فتحته صدر لوفالوا.. وتبين لوفالوا أن البوق عبارة عن أنبوبة مسدودة لا تتخللها سوى فتحة رفيعة، لا تكفى إلا لمرور ابرة من ذلك النوع القاتل.. وأدرك لوفالوا أن رئيس المباحث قد أصاب فى حدسه أن الإبرة كانت تنطلق من سلاح كالبندقية ذات الضغط الهوائى..

وخيل للوفالوا أن شعر رأسه يقف ، وأن أعصابه تتوتر.. وتحول ليشير من النافذة الخلفية لأصحابه، فإذا هى مسدودة بلوح من الفولاذ .. وأسرع يخرج مسدسه، وقبل أن يشهره، سمع صوتا، ثم رأى ابرة فولاذية تنطلق من البوق فتغوص فى صدر ثيابه، ولولا الدرع الذى يلبسه لاخترقت قلبه.

وتذكر دوره فتظاهر بأنه يموت .. وتوقع أن يوقف بيجو السيارة ليتأكد من موته فظل قابضا على مسدسه.. ولكن بيجو أطلق العنان للسيارة مسرعة أكبر من ذى قبل.. وفى اللحظة التالية، تحرك المقعد الخلفى، فإذا بلوفالوا يهبط

إلى صندوق ضيق مظلم .. ثم عاد المقعد إلى حاله.. وتبين المخبر أنه فى أغرب سجن عرفه فى حياته .. وتوقع أن يموت اختناقا، فحاول أن يناضل، ولكنه شعر بسعة السيارة تخف، ثم تحرك قاع سجنه، وإذا هو ينزلق إلى عرض الطريق، فيسرع إليه زملاوه ، وسط الضجيج وطلقات الرصاص.

قال رئيس المباحث للوفالوا إذا إجتمعا فى مكتب الأول بعد ذلك :- لقد ظللنا ننتظر إشارتك، دون أن تفطن إلى أن النافذة الخلفية مسدودة.. فلما طال بنا الانتظار، ازددنا اقترابا، ورحنا نضيق الخناق عليه، إلى أن اضطرته حركة المرور إلى الإبطاء، فأسقطك إلى عرض الطريق.. ولكنا أحطنا به. قبل أن يستأنف سرعته السابقة.. وإلا أننا لم نفز رغم ذلك بنصر حاسم، فلقد جاهد بيجو كالوحش الكاسر، ولم يستسلم إلا .. جثة هامدة.

جريمة فى مالطة ..!

هل يحكم القاضى بما يعلم، أو بما تنم عليه الأدلة والقرائن ؟! وذا كانت الأدلة تدين شخصا يعلم القاضى أنه برى منها، هل يحكم بإدانته أو يبرئه، أو يرد نفسه عن نظر القضية ليكون شاهدا من شهودها؟! تلك هى المشكلة التى حاول «دنيس ماربون» أن يعالجها فى قصته، فأثار مناقشة حادة بين النقاد.

أقبل رجال الشرطة على صوت الاستغاثة المنبعث من ركن مظلم فى ذلك الشارع الضيق من شوارع مالطة القديمة، فإذا بهم أمام رجل غارق فى بحر من الدماء، يعانى حشرجة الموت، وإذا برجل خر يجرى راكضا للابتعاد عن ذلك المكان : هو القاتل بلا شك يحاول الإفلات بعد ارتكاب جريمته.

وأسرع إثنان من رجال الشرطة خلفه فلحقا به وقبضا عليه، فإذا به «بيترو» الخباز الذى يعرفه الناس جميعا، لأنه يصنع لهم الخبز الذى يبتاعونه كل يوم !

أقسم الرجل بأنه لا يعلم شيئا مما حدث، ولا علاقة له بالجريمة، وإذا كان يركض، فما ذلك إلا لأنه تأخر فى العودة إلى بيته، حيث تنتظره زوجته، وهو يخشى أن تقابله بالعتاب أو بأكثر من العتاب!

ولكن عبثا حاول بيترو أن يقنع الرجلين ببراءته، فإن مهمتهما القبض على الجانى أو على من تقع عليه الشبهة، وللقضاء وحده أن يحكم بالتذنيب أو بالبراءة.

ووقف بيترو أمام القاضى «كامبو» يدافع عن نفسه، وكان الحادث قد وقع تحت نافذة القاضى بالذات، بل أن رجال الشرطة قالوا فى شهادتهم أن كامبو أطل من النافذة ساعة وقوع الجريمة، ولابد أن يكون قد رأى الجانى وهو يقتل أو يهرب.

ولكن كامبو أعلن أنه يجلس على كرسى القضاء ليطبق القانون لا ليؤدى

شهادة، وأنه سيتبع الإجراءات المألوفة فى محاكمة الجناة بصرف النظر عما وقعت عليه عيناه. ثم راح يستجوب الخباز المتهم، ويضيق عليه الخناق، ويواجهه بأقوال الشهود وأدلة الاثبات المتوفرة ضده. ولكن الخباز ظل على انكاره، فقررت المحكمة أن يعذب لحمله على الاعتراف، عملا بالقانون النافذ فى ذلك الوقت فى جزيرة مالطة، الخاضعة لجمعية الفرسان!

ونفذ القرار فى الحال. وخارت قوى الخباز المسكين تحت تأثير الضرب وغيره من أنواع التنكيل، فطلب الكف عن تعذيبه، وصاح بصوت متهدج : « أنا القاتل ! أنا القاتل!» وارتسمت أمارات الارتياح على وجه القاضى كامبو، فأمر بعقد جلسة أخرى فى الحال، لمواصلة المحاكمة والحكم على القاتل الذى اعترف بجريمته !

ودخل قاعة المحكمة رئيس جميعة الفرسان الذي يعود إليه وحده حق اصدار الحكم بوصفه السلطة العليا فى الجزيرة ، ولكن أحد المحامين تقدم للدفاع عن المتهم، ومناقشة المحكمة والشهود فى الأسباب التى أتبعت لحمل الرجل على الاعتراف، فتشجع بيترو وعاوده الأمل، فأنكر من جديد وأعلن براءته، وأوشك القاضى كامبو أن يأمر بتعذيبه مرة أخرى، وإذا بزوجته تنهض من بين الحاضرين وتلقى بنفسها على قدميه وتحثه على الاعتراف شفقة بنفسه وبأولاده !

كان ذلك المنظر مؤثرا، فحار رئيس الفرسان فى أمره ، وزادت حيرته عندما دخل رجال الشرطة قاعة الجلسة وهم يسوقون أمامهم رجلا آخر فوجىء وهو يعتدى على أحد المارة بالضرب بغية قتله، وما وقع نظر بيترو على القادم الجديد حتى نهض صائحا : «هذا هو بعينه الرجل الذى ارتكب الجريمة التى قبضتم على بسببها : هذا هو القاتل الحقيقى!»

ووجدت المحكمة نفسها أمام قاتلين، أو على الأصح أمام متهمين، ولكن القاضى كامبو رفض الأخذ بأقوال بيترو كشاهد على القاتل الآخر، وقال أن

المحكمة ترى أن المجرم الأول يحاول الافلات من العقاب باتهام المجرم الثانى. أما وقد قبض رجال السلطة على الاثنين فى ساعة ارتكاب الجريمتين، فانها تحكم عليهما بالاعدام شنقا.

وطلب القاضى من رئيس الفرسان أن يقر الحكم ويصدره بما له من سلطة عليا.

وأصدر الرئيس قراره بشنق الرجلين !

والقانون فى مالطة يترك للمحكوم عليهم فرصة الاسترحام وطلب العفو على أثر صدور الحكم باعدامهم، فاستغل الرجلان هذه الفرصة ولكن الرئيس رفض العفو عنهما. وإذا بزوجة بيترو تثب إلى وسط القاعة وقد حلت شعرها وتطاير الشرر من عينيها، وتخاطب المحكمة بلهجة تنم عن الثورة المضطرمة فى صدرها ..

قالت المرأة أن القاضى كامبو لا يريد البقاء على حياة زوجها، بل يتحايل على القانون للقضاء على ذلك الزوج، لأنه يلاحقها، هى الزوجة ، ويكاشفها بحبه ويرغب في التخلص من زوجها للاستئثار بها!

أنه لتهمة شنيعة دهش لها الناس وانتفض رئيس الفرسان مذهولا، وقد بدأت الغشاوة تنقشع عن عينيه ..

وشعر المتهم الثانى بأنه فقد كل أمل فى الحياة، وأثارت كلمات الزوجة المسكينة كوامن الشفقة فى صدره، فصاح قائلا :- أنا القاتل فى الحادثتين ! أنا قاتل الرجل الذى قبضتم على بيترو بسببه. فقد قتلته فى الشارع، تحت نافذة القاضى كامبو ، الجالس أمامكم الآن على منصة المحكمة .. بل أن القاضى كامبو كان واقفا فى النافذة ينظر إلى الشارع، وقد رآنى أطعن القتيل بخنجرى .. وعرفنى ! نعم، أنا القاتل وبيترو برئ أيها القوم !

وصاحت المرأة تعقيبا على هذا الاعتراف الرهيب :

- نعم ، أن القاضى كامبو يكاشفنى الغرام ويراودنى عن نفسى وقد ساعدته الظروف للتخلص من زوجى فاغتنمها واستغل سلطته ومهنته لانزال القصاص ببرىء من أجل حبه الأثيم .. أيها الناس، إن القاضى كامبو يعشقنى، ويريد أن يقتل زوجى باثبات تهمة القتل عليه!

وساد المحكمة هرج ومرج. وأمر رئيس الفرسان بأن تخلى القاعة ويخرج الجميع منها، وبقى فيها وحده مع القاضى الذي وجهت إليه تهمتان على لسان الزوجة الثائرة، والقاتل اليائس !

والتفت الرئيس إلى كامبو قائلا :

- تكلم الآن، فقد تمزق الحجاب ولابد من معاقبة المذنب أو المذنبين ! أصحيح ما قالته المرأة، وما قاله الرجل !

فلم يضطرب القاضى كامبو، ولم يرتعش، ولم يتردد فى الجواب، بل قال بصوت هادىء رصين :

- صحيح ما قاله الإثنان أيها الرئيس المبجل. ولكننى رأيت ما رأيته ليلة ارتكاب الجريمة الأولى كفرد من أفراد الناس لا كقاض يجلس على هذه المنصة للحكم بموجب قانون واضح النصوص. وقد طبقت القانون بنصوصه، والإجراءات بحذافيرها، وأصغيت إلى الشهود، واطلعت على الأدلة والأحراز، فإذا بها كلها تثبت الجريمة على بيترو الخباز. ولم يكن لى أن أعود إلى ما رأيت لأحكم ببراءته وأقرر أن القاتل رجل آخر، ما دام كل شىء يثبت أن بيترو هو القاتل ! لقد قلت وأكرر: أنا هنا قاض يحكم، لا شاهد يدلى بأقواله! فهل أخطأت فى شىء أو قصرت فى تطبيق القانون، أو حدت عن نصوصه، أو أفسدت الاجراءات المرعية في مثل هذه الظروف ؟

- لقد اعترف بيترو لأنكم عذبتموه !

- ولكن التعذيب يجيزه القانون بل ينص عليه صراحة ويقضى بالالتجاء

إليه.– وأنت رأيت القاتل الحقيقى يقترف جرمه!

– رأيته بوصفى مواطنا من مواطنى مالطة، لا بوصفي قاضيا من قضاتها!

– وكنت تغازل زوجة المتهم وتطمع فى الاستئثار بها!

– ليس للناحية الغرامية علاقة بمنصبى الذى أشغله!

– كنت على وشك ارتكاب خطأ قضائى شنيع!

– لو كان غيرى من القضاة فى مكانى، لارتكب الخطأ نفسه، وضميره مرتاح، لأنه خطأ غير مقصو د مادامت المحاكمة سليمة والقانون مصونا!

حار رئيس الفرسان وتساءل عما يفرضه عليه الواجب. إن القاضى كامبو على حق فيما يقول، من الناحية القانونية، ولكنه مضلل خطر، من الناحية الإنسانية. فهل ينفذ الرئيس قرار ذلك القاضى العاشق، الذى يريد إرسال زوج عشيقته إلى المشنقة !. كلا!. هذا لن يكون !

وفكر الرئيس طويلا، وخرج من تفكيره بقرار نفذه فى الحال. ان القاضى كامبو حرص على صيانة القانون . ما من شك فى هذا. ولكن القاضى كامبو كان فى وسعه أن يتنحى عن النظر فى القضية، حتى ولو كتم السر فى صدره، وامتنع عن المثول كشاهد فى القضية، وترك غيره يحكم على بيترو بالاعدام!

وبيترو مجرم فى نظر القانون وحسب الإجراءات السليمة التى اتبعت. ولكنه برىء باعتراف القاضى نفسه الذى حكم عليه بموجب ذلك القانون!

أما القاتل الثانى، فقد اعترف بجرمه بدون أن يعذبه أحد، بل اشفاقا على المرأة زوجة المتهم البرىء!

إذن يثبت الحكم على القاتل الحقيقى. ويعفى عن القاتل الذى لم يقتل، ويقال القاضى من منصبه : هذا ما قره رئيس الفرسان فى مالطة ونفذه !

صابحة رسول الشؤم والنحس !

فى فجر يوم من أيام الشتاء الماضى دق جرس التليفون المجاور لفراش وكيل النيابة، فمد يده من تحت الغطاء وتناول السماعة، وإذا هى تحمل إليه إشارة من مركز البوليس بأن امرأة تدعى «سيدة» قتلت أرملة ابنها «صابحة» خنقا، بينما كانت نائمة فى فراشها.

ودهش وكيل النيابة للبلاغ، فقلما تقتل امرأة امرأة .. وطلب إلى عامل التليفون أن يعيد قراءة البلاغ حتى تأكد منه .. ثم قام إلى ملابسه فارتداها على عجل، وبعد لحظات كان فى مسرح المأساة.

كانت جثة القتيلة الشابة «صابحة» مسجاة على فراشها .. كانت جميلة جمالا أخاذا يلفت النظر: عينان زرقاوان ، وشعر ذهبى، وقسمات حلوة دقيقة، وقوام فارع طويل.. وكان وجهها أزرق، وشفتاها متورمتين .

أما المتهمة «سيدة» فكانت عجوزا، تبدو عليها آثار النعمة، أحنت السنون ظهرها وقوسته لكنها تحاملت على نفسها ووقفت فى جلد عجيب تروى للمحقق قصة الجريمة، وتعترف فى صراحة بأنها قتلت «صابحة» .. المرأة التى حملت الشؤم والنحس إلى كل بيت دخلته، والحزن والأسى إلى كل دار استقرت فيها..!

صابحة .. !

لم تكن «صابحة» تتجاوز العشرين.. وكانت ربيعا فتانا مترعا بالحياة .. كانت قرة عين أبيها الشيخ، خصوصا بعد أن ماتت عنها أمها الفرنسية التى بنى بها الشيخ على غير إرادة أهله، فشبت مدللة منعمة، لا يبخل أبوها عليها بشىء تشتهيه، رغم أنه كان قد اضطر إلى الاستدانة ورهن أفدنته الخمسين ليلبى مطالب أمها الحسناء التى كانت ترهقه بمطالبها.. وكان إذا خطر طيفها

لشباب القرية أو لاحت لعيونهم، ذابت نفوسهم سحرا وطارت شعاعا.. لكنها كانت تنأى عن مخالطة أهل القرية وتترفع عنهم وتتكبر، وكانت تكثر من التردد على «البندر» فتختلف إلى المتاجر ودور السينما.

وكان والدها الشيخ يكتم عنها أن أرضه محملة بالديون. وخشى عليها الحرمان والفقر بعد موته، فرأى أن يزوجها بشاب ذى ميسرة من أهالى البلدة، لكنها رفضت بادىء الأمر، فلما أصر الشيخ وصمم أذعنت لإرادته، وتمت مراسم الزواج.

وفى يوم عقد القران تلقى الشيخ انذارا بنزع ملكية أرضه، فلم يحتمل الصدمة وأصيب بالشلل، وكان هذا أول نذير من نذر شؤمها ونحسها، لم يلبث أن تلاه نذير آخر، إذ ما كادت تزف إلي عرسها حتى مات أبوها المريض!

همس .. وشكوك!

واستقرت «صابحة» الحسناء فى بيت زوجها، وأصبح الناس لا يدرون من حقيقة حياتهما شيئا.. غير أن همسات ما لبثت أن انبعثت هنا وهناك بأن الحسناء تعيش على غير وفاق مع زوجها، وأنها لا تحسن معاملته، وأنه يأخذ عليها كثرة ترددها على البندر.. وابتدأت ألسنة السوء تخوض فى سمعتها في غير تحفظ.

وفجأة سرى فى البلدة نبأ مرض الزوج، ذلك الشاب الذى لم يشك فى حياته مرضا أو علة .. وما لبث أن مات ووری التراب .. وكان هذا النذير الثالث من نذر شؤم صابحة ونحسها!

وانتقلت الأرملة المحزونة إلى دار أبيها التى كانت قد أغلقتها عقب وفاته لتقيم فيها بعد أن دب بينها وبين أهل زوجها الخلاف على ميراثه .. وحتى فى هذه الفترة لم ترحمها الاشاعات التى تطايرت بأنها آثرت الإقامة بمنزل أبيها

لتسترد حريتها . وتعيش بعيدة عن الرقباء .. كما أخذت بعض الألسن تثير جوا من الريب والشكوك حول وفاة الزوج، وإن لم يجهر أحد فيها بشىء قاطع!

الفرار بالنحس .. والعودة !

ومرت الأيام .. وما كاد الناس ينصرفون عن «صابحة» وشؤمها حتى فوجئوا بزواجها من ابن عم زوجها الأول، الذى ارتضى الإقامة معها فى بيت أبيها .. ولكن الأمر لم يطل بهذا الزواج أيضا، فقد عصفت ريح المنون بالزوج الجديد، فاطفأت سراج حياته ولما ينقض على زواجه غير أسابيع.

وعاد الناس إلى التهامس، وتضخمت الإشاعات حول سلوك الزوجة، وملابسات المرض والوفاة ولكنها مع ذلك لم ترتفع إلى مرتبة الاتهام.

وضاقت الأرملة الحسناء ذرعا بالبلدة وأهلها، فهاجرت إلى «البندر»، واتخذت لنفسها مسكنا تقيم فيه مع خادم عجوز .. وحمد أهل بلدتها الله على هجرتها هذه بشؤمها ونحسها، ولم يلبثوا أن نسوها وتناسوا حديثها.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، ولم يترك القدر «صابحة» تهدأ وتستقر حيث آوت .. فقد تدله فى حبها «صبحى بك» الثرى وعضو مجلس المديرية، وعرض عليها قلبه وثروته فلم ترفضهما .

ومضى على الزواج الثالث شهران .. وفى مساء يوم بينما كان صبحى بك عائدا إلى بيته بعد أن تفقد مزارعه، أطلقت عليه أعيرة نارية فقضى لساعته .. وأصبحت «صابحة» أرملة للمرة الثالثة ..!

ولكم تطق الحسناء الصغيرة صبرا على المكث فى البندر، فعادت مرة أخرى إلى بلدتها وإلى بيت أبيها .. فنشط أهل البلدة يتتبعون باهتمام عجيب أخبارها، ويترقبون نذرا جديدة لشؤمها ونحسها بعد أن تضخمت ثروتها من ميراثها المخضب بالدماء .. ولم تعدم من يذيع عنها فى طول البلدة وعرضها

أنها حرضت على قتل زوجها الثالث، استعجالا لأرثه الضخم كى تنفق منه على مباهجها.وأغلقت الأرملة الصغيرة على نفسها باب بيتها، ولم تسمح لأحد بالتردد عليها.. ولكن كان هناك زوج رابع فى الانتظار.. هو ابن العمدة المتوفى.. شاب وسيم مدلل، وحيد أمه، وإسمه «حسين» .. وكان قد أخفق فى الدراسة وعاد إلى أحضان أمه لترعاه، ويرعى لها أرضها الواسعة.

رأى «صابحة» ذات يوم فى البندر تختلف إلى الطبيب فراقته وسعى إلى مغازلتها فنفرت منه ونأت عنه، فجن جنونه ، وراح يترقبها فى غدواتها وروحاتها، فلم يفز منها بطائل .. وأخيرا لم يجد بدا من مفاتحة أمه «سيدة» على الزواج منها.

آخر الضحايا..!

ارتاعت أم «حسين» عندما فاتحها بعزمه على الزواج من «صابحة» .. فهي تعلم الكثير عنها وعن نحسها، كما سمعت الكثير عن سلوكها، فحذرته ونهته، وتوسلت إليه باكية أن يبتعد من طريق هذه الحية التى قتلت أزواجها الثلاثة لتستولى على ميراثهم، ونصحته بأن يخطب غيرها من بنات الأعيان، ولكنه لم يذعن، وتقدم إلى صابحة يطلب يدها مدفوعا بشغفه وهيامه، فرفضت، فأعاد الكرة فأعادت الرفض .. وزاده رفضها عنادا واصرارا، وبعث إليها بالوسطاء والشفعاء حتى لانت عزيمتها وارتضت به زوجا.

وزفت «صابحة» إلى «حسين» وانتقلت إلى بيته .. وحاولت أن تتودد إلى أمه. ولكنها نفرت منها ونأت عنها منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها البيت، وقد أوجست من مقدمها شرا.. ولم يكذب حدسها، ففي مساء اليوم التالى لقدومها اتصلت النار بحظيرة المواشى الملحقة بالدار وكادت تلتهمها بعد أن نفقت منها جاموستان.. وكانت هذه آية جديدة من آيات نحسن العروس وشؤمها.

وأبى القدر إلا أن يتم روايته .. فقد حملت «صابحة».. فاستبشر الزوج بحملها، وسرت عن أمه مخاوفها، وبدأت تعطف عليها .. ولكنها لم تلبث أن أجهضت، فارتابت الأم، واتهمت زوج ابنها بأنها أجهضت نفسها عمدا .. وبدأ الخصام يدب بين الاثنين ، ويحتدم حتى طلبت الأم إلى ابنها أن يطلق زوجته، إذ أنها تشك فى سلوكها ولا تطيق معاشرتها.

وكاد الابن أن يخضع لطلب أمه، ولكنه مرض فجأة.. وعاده الأطباء، فلم يجده علاجهم شيئا بل ازدادت حالته سوءا.. وجزعت الأم، ومنعت «صابحة» من الاقتراب من فراشه، وجعلت تنظر إليها نظرات مريبة غامضة .

ولكن الموت مع ذلك لم يرحم ولم يشفق، وأسلم «حسين» الروح بين ذراعى أمه .. فلم تنبس المسكينة ببنت شفة ، وإنما لاذت بالصمت وأسلمت نفسها لحزن عميق.

فطير الرحمة !

وفى ليلة الخميس التالى لوفاة الزوج كان الخدم فى بيته منشغلين باعداد «فطير الرحمة» تحت إشراف أرملته «صابحة» استعدادا لزيارة قبره فى فجر اليوم التالى .. أما أمه العجوز «سيدة» فقد آوت إلى غرفتها وأغلقت بابها.

وانتهت «صابحة» من اعداد كل شىء مع انتصاف الليل، ثم دخلت غرفتها متعبة منهكة وألقت بنفسها على فراشها وراحت تغط فى نوم عميق .. وعندما تسللت الأم العجوز إلى فراش «صابحة»، وفى يدها فوطة مبللة بالماء، وضعتها على أنفها وفمها، وضغطت عليها بقوة عجيبة لا تتفق وسنها.. وأحست «صابحة» بالاختناق وحاولت المقاومة، ومدت يديها تنشب أظافرها فى وجه العجوز وعنقها وتدفعها عنها بقدميها، ولكن عبثا، فلم تلبث أن خارت قواها، وخمدت حركتها، بعد أن لفظت آخر أنفاسها..!

ونصبت العجوز قامتها، وحملت المصباح فى يدها، واقتربت به من وجه فريستها، لتطمئن إلى أنها لن تصحو ثانية .. ثم نزلت إلى البهو ونادت أحد خدمها وكلفته أن يستدعى شيخ الخفراء، وأبلغته بما فعلت !

واعترفت «سيدة» للمحقق بكل شىء.. وقالت أنها متأكدة من أن «صابحة» قتلت ولدها .. فاستخرج الطبيب الشرعى جثته وشرحها، وإذا به يعثر فى الأحشاء على بقايا زرنيخ.

وعاد المحقق يسأل «سيدة» :

– ليه ما بلغتيش عن موت ابنك واتهمت صابحة وقتها؟

فأجابته بنفس الهدوء والثبات اللذين اعترفت بهما بجريمتها:

– حبيت أنتقم بنفسى .. وادينى انتقمت.

وقبض عليها، وأحيلت لقاضى الاحالة.. ولكن الموت عاجلها وهى فى السجن، فسبقت إليها عدالة السماء قبل عدالة الأرض.

سعدية .. !(١)

ظل طول عمره ينتظرها .. وضحى فى سبيلها بكل شىء.. اشترك فى جناية ودخل السجن وضحى بسمعته .. وأخيرا، لما قالت لهم «نعم»..

– أما هى .. أو لن أتزوج على الإطلاق!

– هذا غير معقول يا بنى .. نحن هنا فى الريف.. وقد أشرفت على الثلاثين دون أن تتزوج .. وأهل الناحية كلهم يتكلمون فى حقك.

– هى ! لابد أن أتزوجها هى !

– ألا توجد فى الدنيا امرأة سواها ؟..

– لا .. لا توجد .. ! اسمعى يا أماه ! قلت لك ألف مرة لا تتدخلى فى هذا الموضوع .. ان مجرد الكلام فيه يؤلم نفسى ألما لا يوصف .. دعى هذا لله ولى .. وثقى أننى سأتزوج «سعدية» يوما ما ..

فقالت الأم :– ولكنها .. لا تريد!

فمست هذه العبارة قلب الفتى المسكين .. فغلى دمه ودار رأسه .. ونظر إلى أمه والشر يتطاير من عينيه وقال :

– لو قلت لى ذلك مرة أخرى خرجت من البيت ولن أعود إليه أبدا ..!

– لن تتزوجها يا مجاهد .. انها ليست من نصيبك .. هكذا قال الشيخ علوان !.

– لعن الله علوان وأهل علوان !

وخرج من القاعة إلى الردهة المشرفة على رحبة «الدوار». ثم سار إلى الحجرة التى ينام فيها .. وأغلق بابها عليه.

---

(١) المصور ٢٧ محرم – نوفمبر ١٩٤٩ – د. حسين مؤنس.

خلا الشاب إلى نفسه، وأغلق الباب خلفه حتى لا يزعج وحدته أحد.. وجلس على طرف السرير وانهمرت دموعه! واستولى عليه شعور من الخجل من أن يبكى بسبب امرأة، وهو الشجاع الذى يرهبه أهل الناحية أجمعون!

وأراحه الدمع من بعض ما كان يعانى .. فنهض ليمضى إلى الحقل ليرقب سير العمل .. ومر فى سيره بالمرآة الكبيرة المثبتة فى باب الدولاب ووقع بصره على وجهه، فوقف مكانه. واقترب من المرآة وجعل يتأمل السحنة التى طالعته فى المرآة، وشعر بألم بالغ .. وأغلق عينيه ! لم يكن ليطيق النظر إلي عينه اليمنى الضائعة! كانت تشوه وجهه كله .. وكانت هى سبب بلائه.. أن «سعدية» تنفر من وجهه لأنها لا تطيق النظر إلى هذه العين الضائعة.

وجلس على طرف «الكنبة». وسبحت أفكاره ووجد نفسه يقول : « .. يا الهى.. كيف وضعتنى فى هذا السجن الرهيب ؟ اننى أحبها حب عبادة .. ولكنها لاتريد.. اننى أستطيع أن أتزوجها رغم أنفها.. ولكنها قالت : « .. تستطيع أن تتزوجنى رغم أنفى .. ولكنك لن تسعد معى لحظة واحدة .. إن كنت تحبنى فلا تتزوجنى ! اننى أعدك ألا أتزوج غيرك .. فلنعش هكذا نحن الاثنين .. انت بلائى وأنا بلاؤك.. هكذا أراد الله.. ولا حيلة لى ولا لك!» وأحس أن الألم سيستبد به من جديد.. فنهض من مجلسه وخرج مسرعا ليهرب من نفسه. ومن عينه اليمنى ومن «سعدية» .

وانتهى إلى حقله، فخلع جلبابه وتناول الفأس ومضى إلى حيث كان عماله يعملون، وجعل «يعزق» الأرض بكل ما لديه من قوة .. ولا زال يعمل حتى مالت الشمس إلى المغيب، فصرف عماله، وسار إلى ربوة عالية، وألقى بنفسه عليها، وهناك أتاه خادمه «ربيع » بشىء من الطعام فأكله .. واستولت عليه سنة من النوم فأغفى فى هواء الغروب العليل، وظل مكانه حتى أيقظه برد الليل، فصحا وتلفت حواليه، فإذا الظلام قد اشتد من حوله.

واتجه بصره إلى الحقل المجاور، حقل «راشد» والد سعدية! ورأى «الحاج راشد» جالسا أمام نار صغيرة أشعلها ليغلى الشاى وليشوى الذرة .. ورأى شبح امرأة مقبلا نحو راشد من بعيد .. فعرف أنها «سعدية» تقبل على أبيها كعادتها كل مساء تحمل إليه الطعام وتشرب معه الشاى..

ولم يتبين شيئا من ملامحها، فقد كان الظلام شديدا، ولكنها يعرف هيئتها ومشيتها ، ورنة خلخالها .. كما يقولون! ثم بصر بشبح رجل يقبل على الحاج وبنته.. ولم يتبينه فى الظلام ولكن الشبح سعل سعلة عرفه بها : انه «عبد الرحيم الزاهد» .. فعبس وجهه ، وشعر بالغضب .. وتحركت نيران الغيرة فى أحشائه..

وجلس «عبد الرحيم» ومضى يتحدث مع الحاج راشد. ثم أخذ صوتاهما يعلوان شئا فشيئا.. واستحال الأمر إلى مشادة ثم بصر «مجاهد» الرجلين يتماسكان.. ورأى سعية تحاول أن تفصل بينهما.. ثم إذا بعبد الرحيم يضربها فى وجهها بقبضة يده.. وتقع الفتاة على الأرض.. ويسرع «راشد» فيحمل الفأس ويهوى به على رأس عبد الرحيم.

حدث هذا كله فى بضع دقائق.. ولم يستجمع «مجاهد» أشتات ذهنه الا بعد أن وقعت الواقعة واستلقى «عبد الرحيم» على الأرض .. فأخذ «مجاهد» يزحف فى بطء لكى يقترب من موضع الحادث.. فلما صار على مترين استتر بشجرة ضخمة .. فسمع «راشد» يقول لابنته :

– مات .. ! مات يا سعدية !

وصرخت الفتاة .. فوضع أبوها يده على فمها ليمنعها من الصياح، ثم قال :

– يا لله . ياالله نرمية فى الترعة قبل ما ييجى حد..!

وفى الظلام الدامس .. حمل الأب وابنته جثة القتيل وسارا بها واختفيا

عند المنحنى .. ثم عادا بعد نحو عشر دقائق.. وجعلا يهيلان التراب على مواضع الدم.. ثم بحثا عن الفأس التى ارتكبت بها الجناية .. ولما وجداها حملها الحاج وقال لابنته :

– أنا ذاهب الآن إلى أختى زاهية فى «السواقى»، إذا سألك أحد عنى قولى اننى ذهبت إلى هناك من الصباح، وإذا سألوك عن عبد الرحيم فقولى اننا لم نره ..

ثم أسرع واختفى فى الظلام.

ولبث «مجاهد» مكانه جامدا كالصخر يفكر فيما رأى .. وخيل إليه أن الأمر كله حلم طاف بخياله.. ولكنه تبين أن الأمر حق لا جدال فيه.. فها هى ذى «سعدية» ترفع أكواب الشاى وتطفىء النار وتسرع إلى دارها .

وخطر بباله أن يذهب إلى دار العمدة ليبلغه .. وتحركت فى نفسه رغبة الثأر من هذه العاتية التى لا تريد أن ترق له: وتحركت به قدماه فعلا.. فلما صار فى بعض الطريق وقف ، كأنما أمسكت به يدان قويتان، وأحسن أنه لن يستطيع أن يقترف هذه «الخيانة» فى حق هذه الحبيبة القاسية.. فأسند ظهره إلى شجرة واشعل سيجارة ومضى يفكر فى حل لهذا الاشكال.

وطال به التفكير حتى كاد رأسه أن ينفجر .. فذهب إلى داره، وجلس وحيدا يفكر.. ثم خطر بباله خاطر.. فأبرقت أساري وجهه.. ونهض ، وخلع جلباب العمل ولبس جلبابا نظيفا وعمامة بيضاء.. ومضى إلى الحلاق المتواضع إلى جانب المقهى الصغير فحلق ذقنه.. ثم نهض .. وجعل يتلفت وراءه حتى إذا أحسن أن أحدا لا يراقبه، انحرف فى حارة ضيقة.. ثم إلى حارة أخرى .. ووقف أمام دار «سعدية» .. ووقف لحظة يجمع أطراف عزيمته .. ثم دق على الباب دق خفيفا..

وانتظر لحظات.. ثم عاد يدق مرة أخرى ..

ثم سمع خطوات تقترب من الباب .. ثم انفتح.. وبدت «سعدية» وعلى وجهها علائم الرعب الشامل .. ولم تكد تراه حتى زاد عبوس وجهها وقالت له :

– ماذا تريد ؟..

فابتلع ريقه وقال :

– هل أستطيع أن أدخل ؟ فقالت فى غضب :

– لا يمكنك .. أبى مسافر فقال وهو يتمالك نفسه :

– أعرف ذلك .. انه مسافر.. فى السواقى !

ونظر إليها نظرة جامدة قاسية .. فسكتت لحظة، ثم قالت :

– هل رأيته فى السواقى ؟

قال : لا .. ولكنى رأيت كل شىء!

واتسعت عيناها .. ونظرت إليه دون أن تنبس، وقرأت فى عينيه لونا رهيبا من الخبث، فمضت تقول : « كل شىء؟»

فقال فى شبه الهمس :

– نعم .. عبد الرحيم ..!

وكادت تصرخ .. فقال :

– والآن .. هل أدخل ..؟

وانفتح الباب فى رفق .. واختفى «مجاهد» واءه.وحينما أخذ مكانه على الحصيرة فى القاعة، اقتربت منه وقالت :

– هل رآك أحد داخلا؟

– لا .. أخذت حذرى ..

فجلست أمامه صامتة لا تنبس، وطال به السكوت، فقال فى صوت مختنق :

– لماذا قتلتم عبد الرحيم ؟

– فارتجف كيانها كله .. وماتت الكلمات على شفتيها وظلت صامتة .. فعاد يسأل :

– ليه ؟

– نحن لم نر عبد الرحيم .

فابتسم وقال :

– كنت فى حقلى ورأيت كل شىء .. قتله أبوك بالفأس .. ثم حملتماه إلى الترعة .. كان ذلك بعد العشاء بقليل.

ولم تجد معنى للانكار .. وانهار عزمها، واقتربت منه وقالت : «أنت رأيت ذلك؟»

– نعم ..

– وحدك ؟

– وحدى !

فهمست : « الحمد لله»!

ثم التفتت إليه وقالت :

– ولم تخبر أحدا؟..

– لم أخبر أحدا..

وكأنما انزاح حجر من على صدرها.. وأقبلت على مجاهد المسكين .. وأمسكت بذراعه .. وقالت :– ولن تخبر أحدا؟

– لا .. ولو قطعونى اربا .

فضغطت بيدها على ذراعه وقالت :

– فيك الخير يا مجاهد.. وأحس بقلبه ينفتح.. فنظر إليها وقال :

– صحيح يا «سعدية»؟. أنا أعرض نفسى للمصائب بسببك.. وأصعد المشنقة إذا أردت.

فسكتت المرأة .. وانهمرت الدموع من عينيها .. وقالت :

– سامحنى يا مجاهد.

– مسامحك طول عمرى.

وساد صمت ..

ثم نهض الرجل .. وقال :

– أنا ذاهب الساعة.

– بل تبقى معى .

– لا .. أخشى أن يرانى أحد عندك.

ثم تمشى نحو باب القاعة، والتفت إليها وقال :

– مش ح تتجوزينى يا سعدية؟

فأسرعت إليه .. وتناولت كفه الخشن العريض فى يدها .. وقالت :

– أنا خدامتك يا مجاهد.

وسكت لحظة.. فقد كانت هذه العبارة أعظم وأجمل مما كان يحلم به فى حياته.

وقال بعد لحظة :

– ننتظر حتى تمر حكاية عبد الرحيم..

فقالت : – .. الآن .. لو أردت!

فابتسم وقال :

– يوم الجمعة بعد الصلاة .. أمر عليكم هنا..

وخرج فى سكون وحذر.. ومضى يخترق حوارى القرية كأنه ثعلب .. وانتهى إلى داره. واستلقى على سريره.. ومرت أمام بصره صور سريعة قد اختلط بعضها ببعض.. منظر الجناية الرهيبة.. ومنظر «سعدية» تفتح له مغاليق صدرها .. ثم منظر سعدية .. فى ملابس العرس.. يوم الزفاف الموعود !

خدع «الحاج راشد» نفسه حين ظن أن سر جريمته يخفى ولو لأسبوع واحد، لأن كل شىء فى الريف يعمل على رفع الأستار عن الأسرار.

ماء الترعة يتكلم .. وحشيش الأرض يتكلم .. والهواء السارى يعلن الخبر فى كل مكان.

وهذا ما حدث فى حادث مقتل «عبدالرحيم».

كان بعض الصبية يلعبون على شاطئ الترعة.. فابتسم له الماء ودعاهم إلى الاستحمام فى نفس الموضع الذي رقدت فيه جثة عبد الرحيم.. وغاص الصبية.. وعثروا بشىء .. مازالوا به حتى عرفوا أنه جسد إنسان.. وبعد عشر دقائق فقط.. كانت الجثة على الشاطئ. وانقلبت الدنيا .. أقبل العمدة ثم المأمور ثم وكيل النيابة والطبيب الشرعى، ثم جماعات من الجند والمحققين.

وبعد ساعتين كانت القرية على الشاطئ.

وكان «نعيم الخولى» يبحث عن شيء من التراب يردم به حفرة فى أرضه.. فذهب إلى غيط راشد.. وضرب بفأسه فانكشف التراب عن دم جاف قد اختلط بالطين.

وأسرع يعدو إلى بيت العمدة.

وانقلبت الدنيا مرة أخرى إلي غيط راشد.

وبين السين والجيم سقط راشد.. كما يسقط الإنسان فى حفرة عميقة في الظلام.

وقالت «سعدية» :

- غير ممكن أن يكون أبى قد اقترف هذه الجناية.. لقد كان طول هذا اليوم فى «السواقى» وقابل هناك «مجاهد».

وامتدت يد المحقق .. وتناولت مجاهد.. ووضعته بين السين والجيم.

وقيل له أن سعدية قالت ذلك ..

وما أن سمع اسم سعدية حتى قال :

- نعم .. كنت هناك .. ورأيته ..!

وأخذ المحقق يضغط عليه بهذا الذكاء الذي عرف فى المحققين.

وفى بوم من الأيام .. وجد مجاهد نفسه خلف قضبان السجن بتهمة الاشتراك فى قتل عبد الرحيم.

ودفع كفالة وخرج .. ليزور «سعدية».قالت له والدموع فى عينيها :

- الله يسترك يا مجاهد.. وديت نفسك فى داهية !

– علشانك يا سعدية.. لن يمسوا شعرة من رأسك وأنا حى.. أراضية عنى أنت ؟

– راضية عنك .. وألف راضية.. أنا خدامتك يا مجاهد ، فاحنى رأسه.. ثم قال يخاطب نفسه :

– متى .. متى سأنالك ؟. كلما اقتربت منك حالت بينى وبينك الحوائل.. والآن .. بينى وبينك السجن .. السجن سنوات.

سأنتظرك .. ولو إلى آخر حياتى.

وملأته هذه العبارة حمية.. فنهض من عندها والدنيا لاتكاد تسعه من السعادة والاستعداد لكل تضحية.. لقد حلفت له على القرآن المجيد أن تنتظره.

وسار التحقيق سيره المعروف شهرا بعد شهر.. حتى انتهى إلى المحكمة.

عشر سنوات للحاج راشد.. وثلاث لمجاهد.. لعدم كفاية الأدلة على «درجة» اشتراكه فى الجناية.

ودخل الرجلان السجن.

كان مجاهد أسعد السجناء أجمعين.

كان الأمل فى «سعدية» يهون عليه كل شىء.. تكسير الزلط والسعى فى الشمس المحرقة.. والنوم على البرش. وشربة الملح الانجليزى الأسبوعية.

كانت «سعدية» تزوره كل شهرين أو ثلاثة.

وانقضى العامان.. وبقيت بضعة أشهر.. لأنهم قروا الافراج عنه قبل مضى المدة.. لابد كان سجينا محترما مهذبا..

وقبل الخروج بأيام زارته أمه وقالت له أن آل عبد الرحيم يعتقدون أنه القاتل.. فرجاها أن تزور أخاه – أى أخا عبد الرحيم – وترجوه أن يزور مجاهد

فى السجن قبل الخروج. وزاره.. وأقسم له أنه لم يشترك فى الجناية .. وأن القاتل الحاج راشد وحده.

وخرج من السجن .. أكثر شبابا مما دخله .. لأن سعدية كانت تنتظره.

واستقبلته أسرته فى القرية استقبال الفاتحين.

وفى المساء ذهب إلى سعدية ليقرر معها أمور الزواج.

وسألته :

– هل أنت مستعد للزواج منى رغم كل شىء؟

– نعم .. مهما يحدث .. وصمتت . فمضى يسأل عن السبب.

قالت : « ألا تعرف لماذا قتلنا عبد الرحيم ؟..»

– لم أفكر فى ذلك .. كان يستحق القتل على أى حال.

قالت :

– لأن أبى ظن أنه يحاول الاعتداء على..

– كان أبوك على حق .. وقد ذهب عبد الرحيم فى داهية.

– فى ستين داهية.. ولكن ينبغى أن أصارحك بشىء .. فامتقع وجهه وقال:

– خير.

– لقد وعدتنى أن تكتم على وأن تسترنى.. هذا هو المصحف .. اقسم لى أن تسترنى فيما سأقوله لك ..

فأقسم ..

– أنا لا أطالبك بالزواج منى .. أنت حر.– حر ؟! حر ازاى ؟! ليست لى أمنية إلا الزواج منك فهزت رأسها وقالت :

- لن تقبل !

- ليه ؟.. ليه بس؟

- لأننى لا أصلح لك!

- ح أتجنن يا ناس .. ليه؟ فتحفزت لتلقي إليه بشىء خطير ثم قالت :

- لأن عبد الرحيم اعتدى على.

- فلطم وجهه بيديه وصاح :

- يا خبر أسود.. أمتى ..؟

- هكذا .. قبل أن يقتله أبى بأسبوع .

- يا دى المصيبة !.. وهل عرف أبوك ذلك ؟.

- لا .. لم أجرؤ على مصارحته.. كان أبي يسافر كثيرا.. وقد هاجمنى هذا النذل واعتدى على .. ثم أتى إلى أبى يطلب الزواج منى .. فرفض أبى .. فقال له :

- شوف يا حاج راشد .. لن يتزوج أحد ابنتك هذه ..

ومن هنا بدأت المشادة .. وكانت ضربة الفأس.

وتصبب العرق على جسد العاشق المسكين.. وأحس بالدنيا تدور أمام عينيه.

ثم نهض يريد الباب .. فأسرعت وارتمت على قدميه وقالت :

- تكتم على .. لقد حلفت على المصحف.

فقال فى صوت أجش كأنه خارج من صدع صخرة :

- سأكتم عليك ! وأنت فى حل من وعدك.

ومضى إلى بيته.. واستلقى على الحصير من شدة التعب.. وأصابته حمى ظل يعانيها أسابيع.. وحينما عوفى كان قد شفى من غرام سعدية.

وتزوج هذا «العانس» المسكين .. وأنجب .. وانقضت على ذلك سنوات .. ونزح من القرية إلى البندر.

وعاد ذات مرة.. فبلغه أن سعدية تزوجت ، فابتسم وقال :

– هذا المسكين .. كيف ضحكت عليه ..!

– ولقيها بعد أشهر فى قطار الدتلا.. فهمس فى أذنها:

– كيف استطعت تضليله ؟.

فابتسمت وقالت :

– تكتم على ..؟

– طبعا ..!

– لقد كذبت عليك حينما قلت أن عبد الرحيم اعتدى على .. لم يعتد على أحد.. فهاجت شجونه وقال :

– .. ضيعت عمرى بسببك.. ثم تكذبين على ..؟

– بل انقذتك .. ومعروف بمعروف ! كان آل عبد الرحيم يبحثون عن دليل ملموس على اشتراكك فى الجناية ليقتلوك.. وكان أخوه يقول : سنرى .. إذا تزوج سعدية بعد الخروج من السجن فلن يبقى عندنا شك فى أنه اشترك فى الجناية لكى يفوز بسعدية».. ولهذا كان ينبغى ابعادك.. لانقاذك..

ودارت الدنيا أمام عينيه من جديد!

حياة مزدوجة(١)

من الجرائم ما يعجز البوليس عن كشف فاعله، لبراعته الفائقة في تبير جرمه وإحكامه.. وهذه واحدة من تلك الجرائم كان من المحتمل أن تظل غامضة إلى الأبد، لولا «المصادفة» المحضة، إذ كان الجانى فيها صاحب شخصية كبيرة ظفرت بمجد أدبى عظيم، تحت اسم آخر ظن فى البداية أنه اسمه الأصلى، فإذا الإسمان زائفان، وإذا حقيقة المجرم ما تزال مجهولة حتى الآن ..

لم تك تنقضى على نهاية الحرب العالمية الأولى بضعة أشهر، حتى ظهرت فى لندن طائفة من الكتب ضمت قطعا من الأدب الرفيع، وفق كاتبها «هارى هوايتكليف» فى تقليد أسلوب «أوسكار وايل» توفيقا بعيد المدى، دل على تعمق عظيم في دراسة كتابات وايلد وأسلوبه.. ومع أن الكاتب الجديد كان نكرة مغمورا ككل ناشىء، الا أن كتبه هذه سرعان ما لقيت رواجا بين الجمهور، وإعجابا لدى النقاد الذين أفردوا لها أعمدة طوالا فى الصحف، يقرظونها ويتنبأون لصاحبها بنجاح ومجد أدبيين عظيمين !..

بيد أن هذه الضجة لم تستهو «هوايتكليف»، فظل بعيدا عن الأنظار، حتى لقد أخفق أمهر الصحفيين فى الوصول إلى مقره، أو الحصول على معلومات تجلو حقيقته وسيرته.. على أنه لم يلبث أن برز عن عزلته فجأة، واستقبل الصحفيين، وأدلى بالأحايث، واختلط بالمجتمعات الراقية، فإذا هو شاب فى الثالثة والعشرين من عمره، مليح الطلعة، لطيف المعشر، عذب الحديث، رياضى الروح.. مرح فى غير اسفاف ولا زلل، فكأنما هو صورة من «أوسكار وايلد» بعثت إلى الحياة من جديد، مما أكسبه منزلة وايلد فى قلوب الانجليز، وجعل منه حبيب الجماهير !

---

(١) المصور ٣٠ سبتمبر ١٩٤٩ – ٨ ذو الحجة ١٣٦٨هـ – العدد ١٣٠٣ .

وزاد من مكانته أن كان سخيا.. حدث ذات ليلة أن تقدمت منه فتاة بائسة تسأله صدقة، فما كان منه إلا أن قدم إليها إذنا على مصرفه بمبلغ خمسمائية جنيه، فلما اتصل به المصرف فى اليوم التالى يستوثق من صحة الإذن، أكد له الهبة فى بساطة، رغم ضخامتها!..

فقد كان يسرف فى الانفاق، دون أن يحسب للمال حسابا!.. وكان يعتزل المجتمعات بضعة أسابيع، لا يكاد يبدى خلالها ما ينم عن وجوده على قيد الحياة، ثم لا يلبث أن يوفد إلى المصرف، أو إلى ناشر كتبه، من يتسلم لحسابه مبالغ كبيرة ..

وكان من أغرب مظاهر شذوذه، إنه كان لا يحمل فى جيوبه من المال سوى الأوراق المالية من فئة العشرة الجنيهات، كما كان يغرم بالزهور، ولكنه لم يكن يقبل منها إلا ما طال ساقها عن العشرين سنتيمترا..!

وراح الشاب يواصل انتاجه الأدبى، من قصص إلى مقالات، إلى أشعار ومسرحيات، متنقلا من نجاح إلى نجاح.. ولكنه لم يدخر من الأموال التى انهالت عليه شيئا، فقد كان ينفقها على النساء والميسر والسيارات التى كان له ذوق غريب فى تخيرها، إذ كان يأمر بصنع سيارات خاصة به، تتوفر فيها أقصى آيات البذخ والأبهة ..

ولكنه كان لا يفتأ ينتزع نفسه من حياة السهر والظهور من حين إلى آخر، ليختفى بطريقة غريبة غامضة، فيظل عدة أسابيع، دون أن يدرى أحد من أخلص معارفه أين ذهب، فكان أصدقاؤه يتعللون بأنه كان ينعم فى تلك الأثناء بنشوة غرام جديد.. فلقد كان له فى ميدان الهوى حظ عظيم!..

وهكذا لم تحن سنة ١٩٢٣، حتى كان هوايتكليف ملء السمع والبصر.

هجــرة !..

على أنه لم يلبث أن فاجأ معارفه فى فبراير سنة ١٩٢٣ باقدامه على بيع كل ما كان يملك فى انجلترا، وخول ناشر كتبه كافة سلطات الوكالة عنه، ثم نزح إلى هولندا حيث أقام بضعة أشهر، رحل بعدها إلى المانيا .وفى سبتمبر من ذلك العام، استقر فى درسدن، حيث كانت شهرته قد سبقته، فاستقبل بحفاوة واكرام وقام مسرح البلدية باخراج ترجمة لأحدث مسرحية له، فلقيت نجاحا كبيرا، وسعان ما تناقلت مسارح المدن الكبرى اخراجها، فلم يحل عام ١٩٢٤ ألا وقد عرضت فى ٩٠ مسرحا ألمانيا ونمسويا!.. كما تسابقت بعض الصحف إلى نشر قصائد هوايتكليف.. وما عتم أن أنشأ فى دسدن دارا لنشر أحدث الكتب، لقيت منتجاتها رواجا فى المكتبات وفى أسواق الأدب، فلم يعد يفكر فى العودة إلى وطنه.

وكان من أغرب ما لوحظ عليه، أنه تخلى مذ بارح انجلترا عن نزواته وشذوذ طباعه، وغيابه الغامض، وأقبل على حياة منظمة رتيبة.. فكان يستيقظ مبكرا، فيتريض على صهوة جواده فى السهول وعلى ضفاف نهر «الألب»، حتى إذا وافت الساعة العاشرة، عكف على مباشرة أعماله، فلا ينصرف عنها لا فى المساء، قانعا يتناول الطعام فى مكتبه، حيث أعد غرفة فخمة للمائدة. وفيما بين الساعتين الرابعة والسادسة مساء كان يقوم بزيارة بعض الأسرات الكبيرة، أو يلتقى ببعض الفتيات اللاتى جمعن بين الحسن والثقافة، أو يشهد بعض الحفلات.. وكان يأوى إلى مسكنه بعد ذلك، فى ساعة مبكرة من كل مسا، فلا يرى فى ملهى أو مشرب أو منتدى أو أى مكان، مما كان يحمل على الاعتقاد بأنه كان يفضل النوم على السهر.

ولم تك حياته العاطفية أقل انتظاما من حياته العملية. فقد فتن منذ هبط درسدن بحسناء من بنات جنوب المانيا تدعى «والى فون همرشتين»، تجتاز

العام التاسع عشر مع عمرها، بينما كان هو فى السابعة والعشرين.. وما لبث أن تقدم لخطبتها فرحب به أبواها، لما كان بينه وبينها من تكافؤ فى الثراء والجمال والصحة والثقافة والميول.. وتقرر أن يحتفل بالخطبية رسميا فى الرابع من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٤، على أن يرجأ القران إلى نهاية العام.

اختفـــاء !..

على أنه لم يكد اليوم الثالث من اكتوبر يحل، حتى قامت فى درسدن ضجة، إذ شاع فى المدينة أن «هارى هوايتكليف» لم يذهب إلى مكتبه فى دار النشر منذ ثمانية أيام، ولم ير فى مسكنه الخاص.. وكان أول من تنبه إلى غيابه هما والدا خطيبته، فقد اعتاد أن لا يتأخر عن زيارة دار الأسرة أكثر من يومين، فراحا يبحثان عنه، حتى إذا استبد بهما القلق أبلغا نبأ غيابه إلى البوليس الذى آثر أن يتربت بضعة أيام، ثم شرع فى البحث والتحقيق، حين تبين أن لا جدوى من الانتظار.

وأسفر التحرى عن أن آخر مرة شوهد فيها «هوايتكليف»س كانت فى ٢٤ سبتمبر.. ففى مساد ذلك اليوم، أملى على سكرتيرته فى الساعة السادسة الا ربعا، خطابا تجاريا قبل أن تتهيأ لمغادرة المكتب، ثم صرفها.

ودار البحث عنه دون جدوى .. ومرت الأيام فى انتظار عودته إلى الظهور، ولكن عبثا.. حتى تحول الشك إلى يقين بأن هذا الغياب ينطوى على حادث.. غير أن أحدا لم يستطع قط أن يدرك كنه هذا الحادث أيكون انتحارا ؟. وما مبرر، وهو ينعم بحياة رغدة، موفقة، موفورة الرزق ؟. أم يكون ضحية جريمة عاطفية؟. ولا هذا الاحتمال، فقد كان مشغوفا بحب «والى»، وكان يتهيأ لتحقيق أجمل أمانيهما فى اليوم التالى.. إذن، فهل يكون ضحية مجرم غادر؟. لقد كان الشاب يحمل دائما مبالغ كبيرة من المال فعلا، غير أن هذا الاحتمال لو صح لكانت

الجريمة نموذجية، كاملة، فان المجرم لم يترك أتفه أثر يشى به، أو ينم عن مصير ضحيته.. أو لعله قضى أثر حادث أليم! ولكن، كيف يقع الحادث دون أن يبدو أثراً للضحية؟

وهكذا ذهبت الظنون فى تأويل غيابه كل مذهب، دون أن تنتهى إلى منفذ من هذا الغموض .. وعبثا انفقت أسرة «والى» الأموال على العرافين، والمنومين المغناطيسيين، بل والدجالين.. وأفضى اليأس بالفتاة إلى أن تعتزم دخول الدير، لولا أن أقنعها أهلها بأن تنشد السلوى فى الزواج من ابن تاجر بافارى مثر، فتزوجته على مضض.

لوفاخ بلوم!

ومرت الأيام فانتظمت فى عقد الزمن أسابيع ثم أشهرا .. وفى ذات يوم، عثر المسئولون فى أحد سجون برلين، على خطاب فى «زنزانة» سجين حكم عليه بالإعدام، موجه إلى « والى فون همرشتين»، وقد كتب على غلافه.. « استحلف النائب العام للرايخ أن يسلم هذا الخطاب إلى صاحبته دون أن يفضه »!..

أما كاتب الخطاب فكان يدعى « لوفاخ بلوم».. كان مجرما شريرا، لم يعرف العالم له مثيلا فى الوحشية، اتهم باغتيال ثلاثين ضحية – لم يعترف بغير سبع وعشرين منها – خلال اثنى عشر شهرا من الزمن، تصرمت بين نهاية اكتوبر سنة ١٩٢٣ ونهاية سبتمبر سنة ١٩٢٤. وكانت جميعا جرائم مروعة مبعثها الشذوذ الجنسى، وقد أحدث تتابعها ذعرا فى الأوساط الدنيا فى برلين خلال النصف الأول من سنة ١٩٢٤..

وقد أسفر التحقيق عن أن القاتل كان يستشعر لذة فى القتل، تعاوده من آن إلى آخر فى حنين طاغ لا يقوى على مقاومته.. فكان فى غمرة الجنون الذى يبعثه هذا الحنين، يغمد خنجرا فى صدر ضحيته التى كان يتخيرها دائما من

بين فتيات الهوى، أو الفتيان الذين أوردتهم الضلالة موارد الزلل، فلم يكن صرعاه يخرجون عن هذين الصنفين اللذين كثرا فى برلين فى أعقاب الحرب، حين انتشر النحلال الخلقى .

وكانت خطة القاتل لا تتغير فى كل مرة. فكان يتصيد فتاته أو فتاه من قارعات الطرق، فيغرى الفريسة بالمال على أن تتبعه إلى أقرب فندق من الفناق الوضيعة وفى سرعة خاطفة، وبيد مدربة ماهرة، يغيب الخنجر فى صدر الضحية التى تكون فى تلك الأثناء قد تعرت من ثيابها.. !

وكان الخنجر الذى يستخدمه دائما ذا مقبض عاجى، ونصل شرقى تقشعر الأبدان من فظاعة الجرح الذى كان يحدثه .. وبينما تتلوى الضحية ألما فى الفراش وهى تحتضر، يعمد المجرم إلى كتم فمها، وهو يعتدى عليها فى وحشية.

ولقد ظل بوليس برلين يبحث عن المجرم عشرة أشهر بطولها دون أن يقع عليه .. وحدث أن حامت الشبهات فى مارس سنة ١٩٢٤ حول بائع حلوى، وأجمعت القرائن على اتهامه، لولا أن الهم فى اللحظة التى أوشك فيها أن يقضى فى أمره، بما أثبت براءته، ولكنه ظل معتقلا.. وشاء حظه أن ترتكب تسع جرائم خلال اعتقاله، فكانت خير دليل على هذه البراءة، فأطلق سراحه.

وقبض مرة أخرى - في يوليو سنة ١٩٢٤- على بحار عجوز كانت له بالنساء علاقات مشوبة بالغموض والريب، فقضى شهرا فى جحيم السجن قبل أن يوفق إلى تبرئة نفسه ..

وهكذا راح البوليس يتخبط فى أبحاثه.. والسر لا يزداد الا غموضا .. ولولا المصادفة المحضة، لما انفضحت قط شخصية القاتل الوحشى ذى الخنجر!..

غلطة .. موفقة !

ففى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٤ استدرج «لوفاخ بلوم» فريسته الحادية والثلاثين إلى فندق ، شا الحظ أن يكون تحت مراقبة البوليس منذ أيام ثلاثة سابقة، بزعم أنه وكر لجماعة من مهربى الكوكايين.

وفيما كان «لوفاخ» يلج الفندق مع المرأة الساقطة، خيل لأحد رجال البوليس السرى، أنه تعرف فى شكله على أحد أولئك المهربين، فهمس بهواجسه إلى أحد زميليه، ولكن هذا سفه رأى صاحبه، بعد أن تأمل صورة المهرب المقصود، بين المجموعة التى زود بها المراقبون ولكن الجندى الأول راح يؤكد أنه واثق من صدق حدسه.

وهنا كان الدور الذى تطوعت المصادفة بأدائه.. فما من شك فى أن «لوفاخ» لم يكن يمت إلى عصابة المهربين بأية صلة، ولكن المصادفة شاءت أن يرتاب فيه الجندى، كما ألهمت زميله أن يسفه آراءه، فيقضيا فترة فى الجدال .. ولو أن المراقبين الثلاثة اقدموا على اقتحام الفندق لمجرد الشك الذى راود أحدهم، لما وجدوا أى ضير فى وجود «لوفاخ» مع المرأة، فما كان لجوء خليلين إلى أحد الفنادق بالأمر الذي يؤاخذ عليه القانون .. ومن ثم كان «لوفاخ» يأخذ حذره ويعدل عن جريمته الجديدة.

إنما جرت المصافة أن يقضى المراقبون الثلاثة وقتا فى الجدال، قبل أن يحزموا أمرهم على افتتاح حجرة الرجل .. فلما اغتصبوا بابها، ألفوا المرأة ملقاة على حافة الفراش تحتضر وقد بقرت بطنها، بينما وقف الرجل مأخذوا فى ركن من الحجرة . وقد أسقط فى يده، وأدرك أنه لا مفر له ، فاستسلم دون مقاومة، ولم يجشم المحقق – حين اقتيد إليه – عناء السؤال، بل بادر قائلا :

– اسمى لوفاخ بلوم . عمرى ٢٧ سنة.. من أب ألمانى وأم دانيمركية !

أما هو فقد ولد فى استراليا، وحصل على رعويتها .. وقد فقد أباه وهو فى

الثالثة، وأمه وهو فى التاسعة، فكفله عم له قصاب فى سيدنى. ولم يحاول الرجل أن ينكر الجرائم السابقة، بل قال :

لم أكن أقوى على المقاومة .. كان لابد لى من أن أقتل أحدا كل عشرة أيام أو اثنتى عشر.. كنت مدفوعا بقوة خارقة، تبعث فى نفسى أقسى ألوان العذاب إذا أنا لم أطعها، وترسل فى أعماقى نشوة ولذة أن أنا لبيتها.

وأشد ما دهش المحقق، إذ قال حين سئل عن جرائمه:

– لست أدرى .. قد تكون ثلاثين.. أو أربعين.

وراح المحقق يحصيها واحدة بعد أخرى، فلم يتعرف المجرم إلا على سبع وعشرين منها، وأظهر ارتيابه فى أن يكون مرتكب الأربع الأخرى.

وإذ مثل أمام القضاء، ظل على صراحته، وأن أبدى تحفظا، وظهر عليه أنه يكتم فى نفسه سرا يحرص على أن لايفشيه، فكان لا يخرج عن الصمت بأكثر من «لا» و«نعم»، حتى إذا سئل عن حياته قبل نهاية سنة ١٩٢٣، وعن مقره إذ ذاك، قال رغم الالحاح:

– لا أرى أن هذا يهم أحدا. اننى أستحق الموت، ففيم يهمكم ماضى ميت؟.

وعندما تلى عليه حكم الإعدام، لم تهتز شعرة من بدنه، ولكنه قال لأحد حراسه :

– لست أخشى الموت .. ولا أرهب الفأس التى ستقطع بها رأسى، فانى أفضل هذه الطريقة على «الشنق» المتبع فى انجلترا.

وارتعد وهو يذكر «الشنق»! على أنه وجد فى صبيحة اليوم الثامن ميتا فى «زنزانته» وقد قطع شرايين معصمة بحد مشبك «بنطلونه».

وإلى جوار جثته وجدت الرسالة التى استحلف النائب العام أن لا يفضها

.. ولكن النائب لم يشأ أن يحقق له رغبته الأخيرة، فإذا بالرسالة تكشف له سر شخصية المجرم وكم كانت دهشته إذ تبين أنه لم يكن سوى «هارى هوايتكليف»، الكاتب المبدع، والناشر الناجح! على أن دهشته كانت أشد وأقوى، حين عرف أن اسم هوايتكليف لم يكن الا مجرد اسم زائف، كلوفاخ بلوم، وأن الشاب فى الواقع كان سليل أسرة انجليزية عريقة، ذات مجد وحسب..

كان قد مارس الحياة المزدوجة - حياة الخبر والنشر - فترة من الزمن قبل أن يبرح انجلترا، اغتال خلالها فى ضواحى لندن تسع فتيات، ثم تولاه الخوف من أن تهتدى إليه «سكتلنديار»[1]، فهجر وطنه، واستقر فى درسدن التى لم تكن تبعد عن برلين بأكثر من ساعتين، مما كان يمكنه من أن يرحل اليها خلسة كل مساء، ثم يعود دون أن يشعر به أحد، فيظهر فى الصباح على عادته .. وكان من الغريب أنه بدأ يشعر فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٢٤ بعين الخوف الذى خامره فى لندن من قبل، الخوف من أن يكون البوليس فى أثره!

وكان بوسعه أن يهجر ألمانيا بأسرها كما هجر انجلترا، لولا ..

لولا أنه كان عاشقًا !.. لقد أحب «والى» بجماع عواطفه، حبا نقيا، خالصا، فآثر أن يعرض حياته للخطر، على أن يبعد عنها.. وكان أن وقع فى قبضة البوليس قبل الاحتفال بخطبته إليها بتسعة أيام ..

وقد اختتم هذه القصة - التى ضمنها خطابه - بأن ناشد «والى» أن تصفح عنه، وتغفر له ..! ولقد غفرت له، ووهبت شبابها لله من أجله، وكرست حياتها للتعبد عسى أن يغفر الله له.. فقد هجرت زوجها والمجتمع فى أواسط سنة ١٩٢٥ ودخلت الدير.

أما عن حقيقة اسم «لوفاخ» أو «هوايتكليف»، فهذا ما كتمه رجال النيابة و«والى» فى صدورهم .. ولعلهم حملوه معهم إلى العالم الآخر، سرا حصينا.

---

(١) الشرطة الانجليزية .

اعتراف نصف الليل !

– لم أكن أتوقع أن يحتوينا الحزن بدونها!

فهز المضيف رأسه، فاستمر الزائر فى حديثه :

– لقد ظلت تمزج لنا الشراب ليلة العيد أربعين عاما!

فأجابه الرجل العسكرى:

– أجل منذ حضرنا من برلين، وبدأت أنت تتردد علينا..

قال الزائر :

– فى العام الماضى كنا أسعد من فى العالم .. إذ كانت جالسة على ذلك المقعد تصلح جوارب ابنك الأكبر «بول» فى عجلة بادية، ولما أتمت ذلك بدأنا نشرب فى هناء ثم أخذنا نتحدث عن الموت! وبعد ذلك بشهرين اثنين حملت إلى قبرها! لاشك أنك تعلم بأنى قد ألفت مجلدا بأكمله عن « خلود الفكرة» .. ولكم ذر بخلدى ما تقاسيه أنت الآن من آلام لفقدها.

فقال الزوج :

– أجل .. أجل ... لقد كانت امرأة طيبة .. دأبت طوال حياتها على العناية بى .. وكانت إبان خدمتى بالجيش تنهض مبكرة قبلى لتعد لى القهوة وطعام الافطار.. ولكن لا تنس أن كانت لها أخطاؤها ومتاعبها عندما ترغب فى التفلسف!

فقاطعه الضيف ، وهو يرسل بسمة هادئة :

– انك لم تفهمها مطلقا!

وبعد برهة قصيرة عاود حديثه قائلا :

– اسمع يا «فرانز» يجب أن أخبرك بشى.. شىء طالما أرقنى وأفسد على هنائى ولا يمكننى أن أذهب إلى قبرى دون أن أبوح لك به..

فأجابه فرانز :

– أسرع وقله الآن ..!

ثم أشعل غليونه وراح يعب الأنفاس منه بينما دار الحديث بين زائره وبينه:

– لقد حدث شىء بينى وبين زوجتك !

– لا تمزح بربك ..

– أننى لا أمزح، ولكنى واقع تحت لذعات ضميرى المؤلمة منذ حملت هذا السر أكثر من أربعين عاما ولقد آن لى أن أصارحك به.. يا للخجل! انها كانت كالملائكة طهارة ونقاوة .. أما أنا وأنت فمجرمان .. اصغ إلى .. لقد حدث ذلك منذ ثلاثة وأربعين عاما عندما طلبت للخدمة فى برلين وكنت برتبة «كابتن»، بينما كنت أقوم بالتدريس فى الجامعة .. ولاشك أنك تدرك تماما أى وحش آدمى كنته أنت، إذ دأبت على السير فى ركاب تلك الممثلة الجميلة ذات العيون السوداء والأسنان اللامعة البيضاء .. أتتذكرها؟فأرسل فرانز ضحكة عريضة ثم قال بدهشة :

– اذكرها ؟ أنها كانت تدعى بيانكاً

فقال الفيلسوف :

– لقد خدعت زوجتك، وبدأت هى تشك ولكنها لم تنبس ببنت شفة ! وظلت تقاسى آلامها فى صمت مطبق، ولم تلحظ أنت ذلك، أما أنا فقد أدركت كل شىء! إذ كانت هى أول امرأة تعرفت إليها بعد وفاة والدتى، فأشرقت فى حياتى كالنجم اللامع المتألق.

« .. وتجرأت ذات مرة وسألتها عن سر متاعبها، ولكنها ابتسمت وقالت : « لا شيء!»

« أتذكر ذلك ؟.. لقد كان قبل مولد «بول» بوقت قصير !! وأقبلت ليلة رأس السنة منذ ثلاثة وأربعين عاما فحضرت إلى منزلك حوالى الساعة الثامنة كالمعتاد، وكانت هى جالسة تطرز، بينما رحت أقرأ لها، كدأبنا دواما فى انتظار حضورك. ومرت الساعات تترى دون أن تحضر، وخشيت أن تنسى الساعة الثانية عشرة بين ذراعى عشيقتك.. وما كادت تلك الساعة تقترب حتى توقفت هى عن التطريز، وسكت أنا عن القراءة، وسادنا صمت عميق مخيف، شاهدت أثناءه دمعة تجرى على خدها وتسقط على ما كانت تطرزه، فقفزت من مكانى أريد الخروج لاحضارك إلى المنزل، ولكنها هبت واقفة وقالت لى : «إلى أين أنت ذاهب ؟» وكان يعلو وجهها خوف مريع.. فأجبتها: «إلى حيث أحضر فرانز». فصرخت من أعماق قلبها وقالت : «بالله ابق بجانبى .. ابق أنت على الأقل ولا تتركنى» وألقت بنفسها على، ووضعت يديها على كتفى، ووجها المبتل على صدرى، فاهتز جسدى، كما لو مسه تيار كهربائى ، ولكننى أمسكت أنفاسى، وحدثتها بهدوء، فقد كنت حقا تحتاج إلى العطف .. وبعد ذلك مباشرة حضرت أنت ولم تلحظ ارتباكى، بينما لحظنا نحن خدودك الموردة وعيونك الناعسة من تأثير الخمر ومتاعب السهر ..!

«لقد كانت تلك الليلة سببا فى تغيرى تماما. إذ ملأتنى بالحذر منذ أحسست بذراعيها الناعمتين حول رقبنى، وانتشيت بأريج شعرها العطر. لقد هوى نجم من السما فأصبح امرأة جميلة وحبيبة إلى قلبى ! ولقد عرفت أن نظراتى كانت تحوى الغدر، فصرت ألوم نفسى على أنى خائن خادع، وعملت على أن أنقذ روحى من تأنيب ضميرى بأن انتزعك من ذراعى عشيقتك كى تعود لزوجتك، ولحسن الحظ كان لى مقدار من المال قدمته إلى بيانكا لتهجرك..»

فصاح فرانز : «يا الهى .. إذن فأنت الذى أوعزت إلى «بيانكا» بأن تكتب إلى ذلك الخطاب المؤثر الذى تعلننى فيه بانصرافها عن حبى ؟!»

– أجل أنا الملوم، ولكن اصغ إلى .. لقد ظننت أننى اشتريت السلام لنفسى بالمال الذى أعطيته ياها ولكنى كنت مخطئا! فقد تملكتنى الأفكار المثيرة، واضطررت لأن أدفن نفسى فى عملى .. ورغم ذلك أيضا لم يزرنى السلام !« وانقضت سنة أخرى وحلت ليلة رأس السنة الجديدة،

وكنت جالسا بجوارها على هذا المقعد، بينما كنت أنت في الحجرة المجاورة مسترخيا، وسرعان ما عادت لى حوادث ليلة رأس السنة السابقة، فطار صوابى، وصرت انظر إلى وجهها المصفر الباهت، وتمنيت لو أحظى برأسها مرة أخرى على صدرى .. أو لو أقبلها !

والتقت نظراتنا لحظة قصيرة، وقرأ كل منا ما يجول بخاط صاحبه، فركعت أمامها، وأخفيت وجهى فى حجرها، وبقيت هكذا لحظة تقرب من ثانيتين دون حركة حتى أحسست بيدها الباردة تداعب رأسى وسمعت صوتها الحنون وهى تقول : «يجب أن تكون طيبا ويجب الا أخدع الرجل الذى وثق بى وقبع فى الغرفة المجاورة ! فوثبت واقفا، وقد فهمت كل ما قصدت.

وبدأت أقرأ لها بصوت عال دون أن أعى ما أقرأ، إذ كانت الصفحات ترقص أمام ناظرى ! وعندما آذنت الساعة الثانية عشرة وحضرت أنت بنظراتك الناعسة، أحسست بذهاب أغراء الخطيئة عنى. ومنذ ذلك الوقت عاودنى الهدوء بعد أن أيقنت أنها لا تحبنى..

ومرت الأعوام وكبر أولاك وتزوجوا، وأشرفنا نحن الثلاثة على الشيخوخة ولكنى لم أقو على نسيان حبى لها، لا لأن ذلك كان مستحيلا، وإنما لأن حبى كان قد اتخذ صورة أخرى، إذ نبذ رغبات الجسد وتحول إلى عشق روحانى ..

ولطالما كنت تسخر منا عندما تجدنا نتفلسف سويا، ولكنك لم تدرك كيف كانت روحى تهيم فى عشق روحها ؟

«والآن وقد ماتت، وربما نلحق بها قبل ليلة العيد القادم، رأيت أن هذا هو أنسب الأوقات لأزيح عن صدرى هذا السر الثقيل .. لقد أثمت فى حقك مرة يا فراتز فاصفح عنى !»

ورفع يده يريد مصافحة صديقه، ولكن هذا أجابه بهدوء :

– يا له من لغو فارغ ! أى عفو تقصد ؟ وأى صفح تريد ؟ لقد جاء اعترافك متأخرا عن أوانه، إذ عرفته منذ سنين طويلة .. وهى نفسها التى حدثتنى عنه منذ أكثر من أربعين عاما! والآن سأخبرك لماذا كنت اقتفي أثر الحسان حتى بلغت أرذل العمر ؟ كان ذلك لأنها اخبرتنى أنك الرجل الوحيد الذى أحبته !

فنظر إليه ضيفه وقد فغر فاه من الدهشة، بينما راحت الساعة تدق الثانية عشرة !

الفهرس

تابع الفهرس